أحمد فريد محمود

لن تسرق .. حبى

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــــــاب : لن تسرق .. حبى

المؤلـــــــــف : أحمد فريد محمود

تاريـــخ النشـــــر : ١٩٩٩م

الناشـــــــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

المطابـــــــــع : مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ــ ت : ٢٤٦٢٥٦٢

التوزيـــــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢

رقـــم الإيـــداع : ٩٩/٢٦٦٣

الترقيم الدولـــى : I S B N

٩٧٧-٣٠٣-٠٩٧-٠

لن تسرق .. حبى

الأهداء

لحظة صدق . .

خير من عمر كاذب . .

أحمد فريد

(١)

وقف وكأنه يتأمل .. الموجه غاضبة وهى تندفـــع بشـــدة تجاه الصخرة العتيقة بجواره، لترتفع بقوة إلى أعلى وكأنها مارد أسطورى ظهر فجأة أمامه ليحول بينه وبين الأفق البعيـــد.. أو بينه وبين مايخبئه الغد ويخفيه القدر .

كانت الأمواج تتدافع هاربة من ثورة البحـــر وهياجـــه، فتلاحقت تباعاً على أشكال مختلفة أمام عينيه، فرآها تارة فـــى صورة سد عريض لانهاية له يفصله عن الكون كله، وليســـتقر فى وجدانه مرارة إحساسه بالوحدة .. وتارة أخرى يراها كثبانـا رملية هائلة جاءت لتطحنه فى جوفها بالرغم من بياض لونـــها. فنظرة الموت ليست دائمًا سوداء . وبالرغم من تلك الـــهواجس إلا أنه استطاع فى النهاية أن يتأمل بحق، ولكنه تأمل فى داخله، بعيدا عن زمجرة الرياح، وتلبد الســـماء بالســـحاب المتحجـــر، وغزو الأمواج، ولسعات البرد القارس . أدرك فـــى حينـــها أن مابداخله أقسى وأشرس من كل تلك الظواهـــر الطارئـــة لأنـــه الواقع.. واقعة الذى أنجبته لحظة حاقدة من بين ثنايـــا الزمـــان الآمن. فأسقطته ضعيفا بعد قوة.. ذليلا بعد كبريـــاء .. شـــريداً بغير انتماء .

هكذا بدت مشاعر هشام محمود وهو يجتر رحلة عمـــره التى استغرقت أربعين عاما، استطاع من خلالها أن يثرى نفسـيا

وماديا واجتماعيا.. حقق أكبر الصفقات الناجحة من وراء شركته التجارية، وتعايش مع ضميره فى وفاق دائم جعله فى النهاية متميزاً بين أصدقائه من رجال الأعمال، وملتقى أنظار الجميع من حوله.. إلى أن جاءته اللحظة المتسللة من زمانه وهى تحمل فى جوفها كل فيروسات الحقد والخيانة .. والغدر . فاختطفته فجأة من عالمه الهادئ لتلفظ به فوق هذا الشاطئ الغريب عنه.. ليقف على رماله الباردة يحاور المجهول ويشكوه غربة وجدانه .

بدأت الشمس تتأهب للرحيل .. تابعها وهى تطفئ اللهب المتأجج من جزء منها وتغوص فيها وراء الأفق.. قرر أن يرحل قبلها وكأنه لم يشأ أن يرى الأفق مظلما ويفقد بعدها إحساسه الوحيد الذى استطاع أن يفلت من دوامات اليأس .. إحساسه بالأمل .

تحرك بثبات.. كان يشق الريح الجارفة بقامته الفارعة .. فهو قوى البنية له بشرة قمحية اللون، وعيناه ثاقبتان فى نظرتهما، وشعر بلون الغروب، وكبرياء يصعب تجاهلها، ووقار غير مصطنع.. تردد برهة قبل أن يلتفت وراءه عندما ترامى إلى مسمعه من يناديه :

- هشام بك ..

كان وجهها مألوفا لديه، فتوقف مترقبا، بينما أسرعت

الفتاة من خطواتها بعدما تأكدت من صدق ظنها بأنـــه هــو .. وبادرته بنبرة وجلة قائلة :

– هشام بك .. إنى سعيدة حقا لرؤيتك هنا فى رأس البر.

حاول أن يبتسم وهو يتصفح ملامحها لعــل ذاكرتــه لا تخجله، ولكنها كانت أسرع إلى فهمه ومــا يــدور فــى خلــده وأردفت :

– من المؤكد حضرتك لاتذكرنى ..

صمتت لحظة كأنها تستعيد من رصيــد المــاضى مــالم يستطع الزمان احتواءه .. وأكملت :

– كيف ستذكرنى وحضرتك دائم الانشــغال بأعمــالك وعملائك.. أنا رجاء.. رجاء مصطفى يا أستاذ هشام .. كنــت رئيسة قسم العلاقات العامة فى الشركة .... و ....

ضحكت بلا تكلف وهى تقول :

– وحضرتك فصلتنى من العمل بالرغم من كل مبرراتى.

سرت قشعريرة من التوتر والخجل فى جسده وهو يجيبها:

– آنسة رجاء .. فعلا أنت رجاء مصطفى .. لقد تذكرتك بالطبع . لقد كنت أكفأ موظفة عندى .. ولكن ..

أشاح بنظرته بعيدا عنها كأنه يتذكر أسباب فصله لــها أو

كأنه يحاول أن يستعيد اتزانه .. فلاحقته قائلة :

– ثلاث سنوات مضت.. أشعر بأن هذا الموقف حـــدث لى بالأمس فقط.. أتذكر يا هشام بك لماذا فصلتنى ؟

نفى بإشارة برأسه كطفل وديع .. بينما واصلت هى قائلة:

– السبب هدية .. لم أنس ذلك الموقف أبداً، عندما قبلـــت هدية أحد العملاء .. أعتقد من سليمان بك .. وحضرتك علمــت بهذا الأمر واستدعيتنى واتخذت قرارك بفصلى من أجل ســمعة الشركة ومبادئها.. ولكنى لم أغضب ولم أحزن لأننــــى كنــت أعرفك جيداً وأعرف عنك تمسكك بكل القيم والمبادئ العظيمـــة .. ولهذا لم أحاول أن أدافع عن نفسى .

– سيطر الصمت فجأة، غابت فيها مع أحداث المــاضى.. وجدها فرصة لكى يتأملها.. كان وجهها مستديراً كقرص يحيـط به شعر يصعب تحديد لونه واتجاهه، لها بشـــرة شــفافة يكــاد الناظر إليها أن يرى الدماء وهى تسبح تحت جلدها.. وعينــــان استقطبتا الكثير من أشعة الشمس واستقرتا فى مقلتيها لتبث ذكاء ذهبيا مع كل نظرة.. وفم دقيق ككلماتها الحادة الواضحة وقــوام رياضى جرئ ومثير .

انتبه لنظرته الطويلة نحوها وبادر متسائلا :

– ولكن .. ما الذى أتى بك إلى هنا فى هذا الوقت مـــن الشتاء ؟

أجابت بمرح :

– ولماذا لا تسأل الشتاء ما الذى أتى به إلى هنا ؟

ابتسم بهدوء وهو يكرر :

– لا أفهمك يا آنسة رجاء ..

قالت بحزم :

– لأنى أعيش هنا .. إقامتى الدائمة هنـــا .. رأس الـــبر أصبحت بالنسبة لى كل عالمى الذى أستقبل فيه ضيوفـــى مـــن مصطافين، وكذلك أشعر بأنى أستضيف الشتاء والصيف والربيع والخريف حتى الطيور المهاجرة كالسمان.. وجرحى الزمان .

اهتز لسؤالها المباغت :

– وأنت ؟

– أنا ؟ ...

– أجل أنت ..ما الذى أتى ..

ولكنها توقفت عن الحديث عندما فاجأتهما عاصفة قاسية كادت أن تحملها بعيدا عنه، وكأنها هبت لتفريقهما، وبلا تفكـــير أسرع نحوها وتناول يدها بلهفة صادقة متصديا بظهره للريـــاح العنيفة فى محاولة فاشلة لحمايتها.. لتجد نفســها مقتربــة إلـــى صدره، فرفعت عينيها إليه وقالت بنبرة حانية عفوية :

– تعالى معى .. عندى مكان آمن .. بعيداً عن غـزوات الطبيعة .

استجاب لدعوتها، وكأنه أراد أن يلتمس قليلاً من الـدفء من خلال مقلتيها.. أو كأنه لا يملك غير أن يسـتجيب . ومـع عودتها، بدأت تغوص فى أعماق الماضى وراحت تسترسل فـى ذكر الأحداث التى رحلت منذ سنوات ثلاث، وبقدر مـا بهرتـه مأساتها إلا أنه ازداد تعجبا لطريقة سردها اللامباليـة، وكأنـها تستخف بجراحها، معلنة فى كل حرف عن تحديها لمواجهة غدر الزمان، وندرة الأمان .

أخبرته كيف قاومت كل محاولات سليمان بك الدنيئـة، وكل مغرياته بالرغم من ظروفها الاجتماعية المتواضعة، وكيف تلقت ضربته هو شخصيا عندما فصلها ظلماً دون أن يتيح لـها فرصة الدفاع لا عن نفسها فقط، بل وعن أسـرتها الصغـيرة المكونة من والديها فهى عائلهما الوحيد .. ولكنها لم تكن تـدرى فى هذا الوقت أن، الأقدار قد رصدتـها وجعلـت منـها هدفـا لتدميرها ..

أخبرته كيف عادت إلى منزلها العتيق الصغـير وهـى تحمل فى يدها قرار فصلها، والأفكار تمزق شرايين عقلها تحت وطأة سؤال واحد.. ماذا أفعل.. وكانت الطامة الكبرى عندمـا وصلت لتجد الحشود من البشر وقد تراصـت حـول منطقتـها

والذعر يفوح من حبات العرق قبل الدموع، واستطاعت أن تفهم من صرخات البعض أن ثمة زلزالاً مخيفاً قــد أفــزع ســاكنى المنطقة، فخرجوا مهرولين طالبين النجاة فى كل اتجاه.. وكــأن الزلزال قد حركته الظواهر الطبيعية ليزلزل كيانها هى فقــط.. وأسقط الطابقين الهزيلين اللذين يأويان والديها فى أحدهما ويضم أسرة مالك المنزل فى الآخر، ذلك البخيــل الــثرى العجــوز.. ذكرت له كيف وقفت يومها أمام الدمار الذى يحتوى جثث مــا تبقى لها من دنياها، وذلك الانهيار الذى خلخل كيانــها فأفقدهــا القدرة على الصراخ أو البكاء والحركة .. بينمــا كــان ذلــك العجوز يولول بمرارة والناس من حوله لا يدركــون إن كــان عويله من أجل أسرته التى دفنت تحت الأنقاض، أم مــن أجــل بنيانه العتيق الذى يملكه..

فجأة توقفت أمامه وقالت بهدوء أثار ذهوله قبل انتباهه :

– ألا ترى أن شتاء هذا العام أمطاره قليلة ؟

استغرق عدة ثوان حتى استجمع شتات فكره وهو يقول :

– لم تكملى حديثك بعد .. ماذا حدث بعد ذلك ؟

أجابت بمرح غير مصطنع :

– أيهمك هذا ؟

من فضلك .

- سأخبرك .. مادمت تريد ذلك .

ومرة أخرى عادت تسير إلى جانبه وهى تواصل ذكرياتها مع الماضى وأخبرته كيف أخذها العجوز عند أقربائه فى رأس البر لأنه يعلم أنها وحيدة تماما بلا قريب ولا صديق.. وكما أخذت منها الحياة كل شئ بلا مقابل أنعمت عليه هو بالكثير.. استطاع أن، يستثمر قطعة الأرض المشبعة بدماء أسرتها وأسرته وباعها بمبلغ كبير، أشترى به فيلا من طابقين تعددت حجراتها.. ثم جاء الدور لمطالبتها بالمقابل، ورأى فى الحياة الجديدة، فتاة صغيرة يمرح فى عروقها الشباب ويداعب ملامحها الجمال.. وقرر الزواج منى.. فتزوجنى.. وبدأ الزمان يكشف لى عن حقيقة واقعى منذ اليوم الأول لزواجى، حيث اكتشفت عدم قدرته تماما لأن يطالب بحقوقه كزوج، نتيجة لهزة حادثة الزلزال .. وعشت عامين كاملين فريسة خاضعة مستسلمة لأظافر أصابعه التى كانت تنهش فى جسدى ، كما نهشت عذريتى من قبل .. كنت ...

ولكنه قاطعها بلا إرادة قائلا :

- لكنها وحشية .. كيف تحملت كل هذا ؟

أجابته وابتسامة ذابلة تحاول أن ترف فوق شفتيها :

- ولماذا لا تقول إنها الحقيقة.. حقيقتنا نحن البشر.. ولكننا نخفيها عن الآخرين ثم نظهرها فى أية لحظة .. قد تكون

لحظة عجز أو طمع لحظة حقد أو فزع .. المهم أنها بداخلنا فى النهاية .

حاول أن يكون مستبشرا وهو يقول:

- لا تنظرى للحياة بتلك النظرة السوداء .. الناس كلـــهم لا يتشابهون فى شئ غير قدرتهم المشتركة على النطق .. أنــــا مثلاً كنت..

ولكنه توقف عن الحديث عندما انتبـــه لابتعادهـــا عنـــه، وراحت تعدو وراء ورقة شجر طائرة قد حملتها الرياح، وهـــى تسقطها على الأرض تارة ثم تعلو بها أخرى . ثم عادت إليـــــه لاهثة وهى ممسكة بالورقة الخضراء.. وتساءلت بلا مبالاة :

- هه .. ماذا كنت تقول ؟

كتم غيظه وهو يقول متلطفاً :

- أبداً .. المهم أنت ماذا حدث بعد ذلك ؟

- لاشئ .. سارت الأمور طبيعية بعد ذلك .

قال بإصرار :

- كيف ؟

ضحكت ملء رئتيها قبل أن تجيب :

- مات ..

– وأقرباؤه .. ألم ..

قاطعته بحزم :

– ليست مشكلتى .. و ..

قفزت أمامه لتوقفه، ثم استرسلت قائلة :

– عليك أن تتأمل الآن .. ما رأيك ؟

وأشارت إلى مبنى صغير مستغل كفندق، ارتفعت على واجهته لافتة عريضة، كتب عليها عبارة "فندق الأمل" وقد أحيطت بأضواء خافتة بألوان قاتمة .

همس بإعجاب :

– هل حولت الفيلا إلى فندق ؟

رمقته بنظرة خاطفة وهى تقول :

– وهل تظن أننى كنت سأدعوك .. إلا إذا كانت الفيلا على هذا الوضع ؟

ابتسم بلا اهتمام.. ثم تبعها إلى داخل الفندق حيث لاحظ من الوهلة الأولى خلو ردهته من النزلاء تقريبا، وكذلك قتامة الأضواء وهى تسترخى فوق الأركان، فبدت فى عينيه وكأنها كهوف مظلمة تطوى كل توقعات دنيا الغيب .

فاجأته قائلة :

- نحن لا نستقبل نزلاء بلا حقائب .

أجاب وهو يحاول التخلص من انقباضة صدره :

- سأحضرها .. من الفندق المنافس .

- وهذه ليست مشكلتى أيضا .

تركته وهى تعطى تعليماتها لأحد العاملين :

- غرفة ٢٠٧ للبك .

وجد نفسه يسير وراء العامل بلا إرادة .. اعتبر هذه التعليمات موجهة إليه شخصيا .. وما إن استقر فى داخل الغرفة واتجه إلى الشرفة يراقب هياج الأمواج وهى تلاطم الرياح قبل الصخور، حتى دق رنين التليفون وسمع صوتها وهى تقول :

- هل أعجبتك الغرفة ؟ .. على كل حال الفندق به عشرون غرفة أخرى .

- أشكرك .. الحجرة جميلة وتطل على ..

قاطعته بفتور :

- الحمد الله .. لأن كل الغرف مشغولة .. تمنياتى لك بمساء سعيد وقطعت الاتصال بينه وبينها .

وقف مترددا عدة لحظات.. حاول أن يشعل سيجارة.. أن يجلس .. أن يتجه للنافذة مرة أخرى .. ولكنه اندفع إلى

الخارج.. وانطلق ثانية يقاوم تيار الريح بصعوبة، وبالرغم مــن ذلك كان يشعر بالارتياح لأنه استطاع أن يتخلص مــن ذهولــه وانقباض قلبه . وفى دقائق .. أنهى حساباته عند الفنــدق الأول، وحمل حقيبتة الصغيرة إلى داخل سيارته التى اختفت معالمـــها، إثر ما أطاحت به الرياح فوقها من رمال وماء.

استقر وراء عجلة القيادة وهو يدير ماسحات الزجـــاج، والتى راح يتابعها بعينيه يمنة ويسرة لتزيده بعداً عن التركيز فى أى شئ.. أو كأنه أراد ذلك . دخل بهو الفندق، لاحظ لأول مرة بعض النزلاء وهم منتشرون فوق المقاعد المتباعدة.. بينما جذب انتباهه وجود رجاء وهى جالسة عند الجانب الآخــر منفــردة، تردد لحظة قبل أن يخطو نحوها، حيث كانت تبدو فى صـــورة مختلفة تماماً عما رآها. رائحة عطرها تفوح حولها فـــى كــل اتجاه، فستانها الفضفاض مسترخ على قوامها بلونه الأحمر فـــى هدوء، بينما تكور شعرها فوق رأسها باستثناء بعض خصلاتـــه الأمامية التى ارتفعت قليلاً عن جبهتها وكأنـــها زهــرة عبــاد الشمس.. استكانت تتعبد فى انتظار شروق القــرص الذهبــى . تقدم مقتربا منها، لم يشعر بانقباضته بالرغم من أن الأضــــواء القاتمة مازالت تحيط بها .. وجدها غائبة تماما فى رحلــة مــع المجهول.. همس إليها بصوت منخفض :

– مساء الخير ..

رفعت رأسها نحوه .. كانت رائعة الجمال .. سـرعان مـا ابتسمت عيناها وهى تبادره بتلطف، بعدما لاحظت الحقيبة فى يده :

– للأسف ليس لدينة غرفة خالية.. آخر غرفة رقم ٢٠٧ قد شغلها رجل عظيم منذ ساعتين تقريباً .

انتشى لمجاملتها ودفعه ذلك الإحساس للمزيد من التودد.. قائلا:

– هل يمكننى الجلوس قليلاً معك؟

أجابت بمرح :

– بصفتك رئيسى السابق فى العمل.. فهذا أمر لا يتفـق مع مشاعرى السابقة نحوك، أما إذا كنت بصفتك صديقا جديـداً، فلك كل الترحيب والتقدير ..

ورمقته بنظرة خاطفة قبل أن تتسائل :

– هه .. أيهما تختار ؟

صمت وكأنه يستوعب ما قالته، ثم بادرها على غير مـا توقعت :

– لا هذه .. ولا تلك .

أحست برجفة سريعة تسرى فى عروقها، وكأنها اكتشـفت لأول مرة أنها أمام شخصية جديـرة بشـئ مـن اهتمامـها..

وبصعوبة استطاعت أن تتوازن وهى تقول:

-بأية صفة إذن ؟

- بصفتى غريبا.. ألا تشفع لـــى غربتـــى لنيـــل هـــذا الشرف..؟

وقبل أن، تتفوه بكلمة واحدة، ازداد اقترابا ثم جلس أمامها وهو يتخلص من زفرة طويلة ثم أردف :

- لا تتعجبى.. فهى المرة الأولى فى حياتى التى أجـــد نفسى فيها وحيدا.. بلا أصدقاء أو رفاق.. لم أكـــن أتوقـــع أن يهاجمنى هذا الإحساس المرير بالغربة.. أشعر بالشوق يمـــزق شرايين صدرى.. فجأة فقدت إحساسى بالانتماء إلى أى شـــىء.. الأشياء اختلفت أمام عينى قبل وجدانى .. لا الليل ولا البحر ولا الشمس ولا القمر كما كنت أعهدها من قبل.. وكأنـــها جميعـــا جاءت من بلاد بعيدة وباتت غريبة مثلى .

قالت تواسيه :

- أهى قصة حب إذن ؟

لاحقها بانفعال صادق :

- نعم .. قصة حب.. ولكن ليست كما جالت بخـــاطرك .. إنها قصة حبى لأصدقائى ولكل المقربين لى .. و ..

أشعل سيجارة وهو يسترسل :

– ستندهشين لو علمت بأننى هارب من ذلك الحـب.. أو قولى إننى مشفق عليهم لتألمهم من أجلى.. ولــهذا قــررت أن أرحل عنهم قليلا حتى أخفف من صدمتهم.. وخاصة عبدالغنــى .. أتذكرين الأستاذ عبدالغنى ؟

أجابت بضيق :

– مدير أعمالك .. فى كل شىء على ما أعتقد .

لم ينتبه لملاحظتها الساخرة .. وواصل بلهفة حقيقية :

– أجل هو .. كم أنا حزين من أجلــهم ، حزنــا يفــوق حزنى على نفسى .

– أهو لغز ؟..

– بل قولى حب.. أنا آسف إذ أقحمتك فيما لا شأن لك به.

أجابت بصدق :

– أبدا .. ليتك لا تمانع فى إخبارى بكل شئ .

وكأنه كان ينتظر منها تلك الكلمات .. لم يدخر شيئا فى عقله، راح يسرد عليها مأساته التى باغتته فــى أوج مجــده.. أخبرها بخصوصياته التى أذهلتها، وكأنها لم تكن تتصــور أن مثل هذه الشخصية يمكنها أن تتعايش مع الحياة بكــل دقائقــها، تصورته يوما يتنفس أرقاما ويرقد فوق عقود صفقاته ولا يتركها قبل أن تفقس أرباحا طائلة، وجدته إنسانا يحمــل بيــن جنبيــه

مشاعر قد تفوق الكثيرين من رجال قابلتهم من قبل.. أخبرهـــا بحبه الجارف لكل المحيطين به، وبسعادته البالغة عندما يرســم الابتسامة على شفاه من حوله.. كان يحدثها عن ذكرياته كأنـــه يعزف سيمفونية الوفاء من خلال كلماته.. ولكنه فجأة احتبســت الأحرف فى حلقة للحظات قليلة، تصورت فى حينها أنه يقـــاوم نبأ خطيرا لا يريد أن يفصح به لها، لولا بريق اندفع فوق مقلتـه كاد أن يشرخ شموخه أمامها، إلا أنه نجـــح فـــى إخفائـــه وراء الضباب الكثيف الذى أطلقه من سيجارته الملتهبة، وكأنه استنجد بالقدر لينقذه من هذا الموقف، فاستجاب له بأن رفع وشاح الليـل مع أذان الفجر، مما أعطاه الفرصة لكى يســتعيد توازنـــه مـــع لحظات الصمت والتأمل للشروق الفضى.. ثم أنهى حديثه بنـبرة هامسة وحاسمة :

– وهكذا .. وإنتهى كل شئ .

لم تكن تدرى أنها تعتصر جرحه بكلتا يديها وهى تتسائل:

– والشركة .. ما هو موقفها الآن ؟

– تنازلت عنها .. مقابل نسبة مئوية أحصل عليها نظـير اسمها وتعاملاتها .

صمت لحظة . استنفر خلالها ابتسامة ساخرة على طرف فمه .. واستطرد :

– تقريبا أصبحت موظفا غير عادى.. اختـــلاف بســيط بينى وبين أى موظف آخر، هو يعمل وأنا لا أفعل شــيئا غــير الانتظار بما تجود به نسبتى .

حاولت أن تسرب إليه شعاعا من الأمل وهى تقول :

– لا تنس أن الأرض كروية.. والربوة التى كنت تقــف فوقها حتما ستعود إليك بعد أن تكمل دورتها .. ثم ..

أشارت بإصبعها إلى السماء قائلة بثقة :

– منه .. وله . فلماذا إذن الحزن ؟

قبل أن، تنتظر منه تعليقا بادرته :

– بالمناسبة لمن تنازلت عن الشركة ؟

أحس بالدماء تندفع إلى رأسه فجأة .. وكأنه لــــم يكــن يتوقع سؤالها، أو أنه قد نسى بالفعل لمن تنازل .. وبهدوء يحيط به أنفاس من الخجل والانكسار .. أجابها :

– كانت من نصيب سليمان بك .

تحجرت نظرتها إليه، وكأنها من عينين افتقدتـــا الحيـــاة فجأة.. وهو منكس الرأس فى غيبوبة مع أفكاره المضطربة، إلا أنه انتبه فى شبه فزع عندما فاجأته بضحكة مجلجلـــة، أتبعتـــها

بقهقات هستيرية لا تتناسب مع موقفه الأليم.. ثم راحت تضرب كفا بكف وهى تقول :

– كم هى غريبة الحياة .. لقد فصلتنى بسبب هدية صغيرة منه .. ثم تأتى أنت وتتنازل عن كل شيء للإنسان نفسه ..

نهض منتفضا وهو يقاطعها :

– من فضلك لا تسخرى من موقفى.. فأنا مازلت هشام محمود الثرى بكبريائه وحب الآخرين له .

وكأنها قد فقدت رشدها بالفعل وهى تتابع انصرافه من خلال نظرتها الزائغة وضحكاتها المتلاحقة .. وقالت :

– أى حب يا عزيزى ؟.. يوما ستدرك أنه قد طار مع التيار.. ستدرك أن الحب وحده .. لا يكفى .. ولا تنس أن تخبرنى إذا اكتشفت غير ذلك ... و ...

وتوقفت فجأة عندما أدركت أنه قد أنصرف من أمامها.. واستسلمت لدموعها الصامتة .. بهدوء .. وهى لا تدرى إن كان بكاؤها من أجل قصته المؤلمة، أم من أجل ساحة حياتها المليئة بأعشاب الحزن .

***

(٢)

شعر بخلجاته تنبض بلهفة اللقاء وهو علـــى مشـــارف القاهرة..كانت الشمس مفتونة بلهيبـــها فـــى لحظـــة الظـــهيرة، وبالرغم من ذلك كان يخيل إليه أنه يمتص أشعتها بأنفاسه لعلـها تطفئ غليان مشاعره فى صدره.. لقد كانت ليلته مخيبة لآمالـه، حيث سعى للبحر طلباً للاستجمام فأفزعتـــه أمواجـــه.. تلمـس نسمات الخريف فهاجمته زوابعه.. ترفق الخطى فوق الشـــاطئ فعاندته رماله ..

لجأ إلى وحدته ففاجأته عروس البحر أو شيطانه، لقـاؤه مع رجاء مصطفى قلب موازين أفكاره.. ومشـــاعره .. حيـث بهرته شخصيتها المتناقضة فى كل شئ.. تعجب لذلك التـــوائم الذى جمع بين عقليتها الفذة المتأججة وبين تصرفاتها اللامبالية.. ومرحها الذى تفوق على معنى السعادة وبيـــن غلالـــة الحـــزن الملازمة لنظرتها .. وأحاديث التفاؤل والأمل وبيـــن الأركـــان الكئيبة المظلمة .. وأخيراً تحديها لأفكاره واستهانتها لمشـــاعره تجاه الآخرين، وتوقعاتها الغريبة بما تخفيه الليالى القادمة لـــه. من أجل هذا أحس بالارتياح بمجرد وصوله إلى مسـكنه، وراح يتأمل أركانه المبتهجة ونوافـــذه المنفرجـــة وألـــوان جدرانـــه المضيئة، ثم استكان فوق مقعده المفضل وأغمض عينيـــه فـــى

نظرة تأمل إلى أعماقه كأنه يتخلص من كابوس أو حلم لايرغب فى معايشته . وبدأت الساعات تزحف فى ملل وهى تسحب من

خلفها أصداء الصمت المدوية فى أعماقه، حتى تمركـزت فى شرنقة وحدتة لتزيده مرارة . وعند المساء .. تراقصت أمام عينيه معالم الخوف من المجهول، عندمـــا فشـلت محاولاتـه المتعددة للاتصال بأصدقائـه ليخـبرهم بعودتـه.. تصورهـم سيتسابقون إليه كعادتهم، سيمدون سواعد الوفاء نحـوه ليتكـئ عليها، سيزفون إليه بشائر الأمل والآمان، سينعم بكلمات الحـب وضحكات القلب .

ولكنه تلقى المبررات قبل الاعتذارات !!

هذا فوجئ بسفره الاضطرارى للخارج .

وذاك استدعى لأمر هام ..

وثالث منعه الأطباء من محادثة أحد فى الوقت الحاضر..

ورابع أمر بألا يوقظه أحد ..

وآخر تراكمت الديون عليه فجأة وأصبح فى حاجة لمـن يساعده. وغيره كان أكثر صفاقة ونفى وجوده بنفسـه منتحـلا شخصية الخادم. وكان عليه أن يرضى.. أو يقنع نفسه بذلك .

وكأن هشام محمود قد آبت عليه نفســه أن تكــون هــذه المواجهات حقيقية، وأراد أن يوحى لخياله بأنه لا يزال تحــت تأثير كابوسه الخبيث فاستلقى على فراشه وأغمض جفنيه وراح فى سبات عميق، أو ابدى لواقعه ذلك التصور .

وفى صباح اليوم التالى .. شــعر بنفســه أكــثر تفــاؤلا وإحساسا بالثقة، وكأنه تعايش مع حلم طويل أخذ يتخطــى بــه كبوة بعد كبوة .. متجاوزا من خلال إرهاصاته كل كوارثه، إلى أن تغلب على مأساته مستعيناً بفكرة طارئة تشبث بها، واضعــا فيها كل آماله .. بل آخرها . وكان قراره بالذهاب إلى مــنزل مدير أعماله الأستاذ عبدالغنى .. ولأنها كانت المرة الأولى التى يذهب بنفسه إلى كاتم أسراره، بدأت المفاجآت تقفز أمام عينيــه الواحدة تلو الأخرى، حيث جذب انتباهه التشابه الكبير الذى بين منزله وما يراه الآن فى منزل عبدالغنى باســتثناء المســاحة .. نفس التماثيل والثريات والأثاث وإن اختلفت فى ألوانها، حتــى الستائر والسجاجيد وطريقة تنظيم الأركان.. لم يكن يتصــور أن ذلك الرجل صاحب البدلة المميزة والتى لازمته سنوات طويلــة، يعيش فى ذلك المناخ المتناهى فى الــثراء ، وبــاقتدار كبــير استطاع الرجل أن يخرجه من دوامات الدهشة من خلال كلمــات الترحيب والمودة.. وما أن جلس الاثنان عند أحد الأركان فــى الردهة الواسعة .. حتى بادره الرجل قائلا :

– هشام بك .. إنه لشرف عظيم أن ألمس هذا التنـــازل منك وتقبل حضورك إلى منزلى .

أجاب بابتسامه هزيلة :

– لقد حضرت بلا دعوة .. لأنى لم أجد من هو أخلـص منك لكى أبثه همومى وآلامى .

قال عبدالغنى وهو يفرك أصابع يديه :

– أنا رهن إشارتك .. وكلى آذان مصغية .

– فى الحقيقة أنت لن تسمع منى أنباء جديـدة .. فـأنت تعلم كل شئ عنى .. وتدرك حقيقة الموقف الذى أصبحت عليـه الآن. ولكنى اشعر بالسأم .. والضيق يكاد يطبق على صدرى .

أجابه الآخر وهو يختلس نظره إلى عينيه :

– السأم ؟ .. هذا أبعد إحساس ممكن أن يقـــترب مــن حياتك .. فسيادتك قادر على مواجهة أية صعوبـــات .. ثــم إن الآخرين قد ..

قاطعة بانفعال مكبوت :

– الآخرون .. أين هم الآن ؟ .. لم يعد لى أحد .. الكـل أصبح يتوارى وراء مبررات واهية لكى يبتعد عن طريقـــى .. كأنهم يخشون أن أشركهم فى مأساتى، أو يتورط أحدهـــم فـــى

موقف كريم تفرضه معانى الصداقة والوفاء.. أشعر بغثيان دائم متلازم مع وحدتى .. وكأنى أصبت فجأة بوباء فتاك جعل الجميع يتسابقون إلى الهرب منى طلباً للنجاة .. حتى أنت .

وكأنه تلامس فجأة مع تيار كهربائى شديد .. مردداً :

– أنا .. !!

لاحقه هشام بإصرار :

– أجل أنت أيضاً .. لم أكن أتصور أن تكون مثلهم .. تركتنى فجأة دون مبرر وكأنك كنت تتحين تلك الفرصة، بالرغم من حسن معاملتى لك على مدى سنوات طويلة .. و ..

قاطعة عبد الغنى بهدوء وتحفظ :

– هشام بك .. أنت منفعل الآن .. ويبدو أن الأزمة التى تمر بها جعلت الأمور تختلط أمامك .. فالأمر لايحتمل تصفية الحسابات أو عبارات العتاب .. هذا إن شئت الحفاظ على صورتك السابقة كما كنت .

أفزعه تبجح الرجل وفتوره .. ثم قال متسائلاً :

– ماذا تقصد يا عبدالغنى ؟

أجابه بحزم :

- أن تواجه الحقيقة .. لابد أن تتعـــايش مـــع واقعــك الجديد، وأن تنحنى للعاصفة قبل أن تصطدم بكيانك .

سائله متهكما :

- هل لك أن ترشدنى أيها الصديق الوفى ؟

نهض فجأة موليا ظهره .. وقال :

- إذا كنت تسخر منى فلا داعى لبدء الحوار ياهشام بك.

ثم التفت نحوه مستطرداً :

- ولك أن تختار .. إما أن تنصت إلى كصديـــق جديـــد، وإما أن تعاملنى كمدير لأعمالك .. سابقا .

صمت برهة قبل أن يتساءل :

- وما الفرق ؟ .. هل ..

عاد وجلس أمامه مرة أخرى ثم قاطعه :

- الفرق يمثل صورة الواقع وطبيعة الحيـــاة .. إن كـــان اختيارك لى كصديق فعليك أن تمنحنى ثقتك كاملة .. أما .. أمـــا إذا حددت صفتى كمدير أعمال .. فمن حقى أن أبحث عن رجل أعمال ناجح آخر .. و.. أتعامل معه .

شعر هشام محمود بالدماء تندفـــع بقــوة إلـــى رأســـه، وبنبضات قلبه تدق فى عروقة وكل شريان فى كيانه، وكأنـــــها طبول حرب دوت فجأة فى ساحة حياته الصامتة . دقق النظـــر إليه، وكأنه يراه لأول مرة .

حاول أن يستشف من أسارير وجهه ما يخفيه فى بــاطن أعماقه.. ولكن عبدالغنى لم يكن من ذلك النوع الـــذى تفضحـــه أفكاره بسهوله، فهو هادئ إلى حد الفتور.. أساريره ناعمة كجلد الأفعى.. عيناه تتواريان خلف نظاراته السميكة يكـــاد النـــاظر إليهما لايرى إلا مقلتيه وكأنهما ثقبان قد خصصا للتلصص على الآخرين.. وجهه يميل إلى الاستدارة، وله شارب كثيف استطاع أن يوظفه باقتدار فى كل تعاملاته الشريفة وغـــير الشـــريفة.. وقامة قصيرة معتدلة ومنكبان يحمل فوقهما خمســـة وخمســـين عاما هى سنوات عمره .

انتبه إلى صوته وهو يقول :

– ياهشام بك الدنيا لاتفضل الإنسان الذى يتعامل معـــها بخيلاء.. كما أنها لاتهوى معايشة الضعيف المتخـــاذل.. وأنـــا رجل صاحب خبرة والخبرة أبقى من المال نفسه.. وأنت خـــير من يدرك هذا .

أخفى وجهه بين راحتيه قبل أن يجيبه قائلا :

– أتريد الحقيقة يا عبدالغنى ؟.. أنـــا اشـــعر بـــالوهن والخوف معا وكأن منافذ الدنيا بأسرها قد أغلقت أمامى.. لســت أدرى كيف سأواجه الحياة بعد ذلك .. والآخرين .. ونفسى ..

قطع عليه الحديث متلطفاً :

– ألمس من حديثك .. أنك قررت اختيارك الأول بالنسبة لى كصديق لك جديد .

وكأنه صرح شاهق قد هوى فجأة إثر زلزال عنيف وهــو يهمس قائلا :

– أجل .. ولكن ..

لاحقة عبدالغنى بنبرة واثقة :

– إذن دعنا نبدأ من النهاية وأخبرنى بحقيقة موقفك .

وبدأ هشام محمود يردد على مسامعه كـــل التفــاصيل، وكأن الآخر شخص غريب يجهل عنه كل شئ.. وأضاف إلـــى معلوماته أنه واقع تحت ضغوط نفسية ومادية من سليمان بـــك لكى يتنازل له عن نسبته الباقية من الشركة.. كما تحدث عن

لقائه الأخير مع رجاء مصطفى وإحساسه بالضآلة أمامــها وبالانبهار من تصرفاتها .

و أردف مسترسلا :

– الحيرة تكاد تقتلنى.. لست أدرى مـــاذا أفعـــل .. وأى قرار أتخذه، أنت تعلم أى مجهود قد بذلته حتى أسست شركتى.. وتعلم أيضا كيف خدعتنى الأيدى الخفية واستطاعت أن تقطـــع الطريق أمامى عـــن مواصلـــة نجـــاحى.. إحســـاس بـــالظلم يستصرخنى لكى استرد حقوقى.. ولكن عجزى يحول دون ذلـك .. أشعر أن هذا هو ذنب رجاء مصطفى.. الإنسانة التى دمـوت حياتها دون أن أقصد، وأيضا ذنب وفائى للآخرين الذيـــن لـــم أحسن اختيارهم .

– هذه أساليب إنسائية لاتفيد بقدر ماتضر .

قال وهو متهالك :

– وهل لك رأى ؟

ولأول مرة تظهر الابتسامة فوق شفتى عبدالغنى، وبالرغم من كونها بدت تطوى معنى الخبث إلا أنها استطاعت أن تطمئن هشام إلى حد ما ..

ثم أجاب :

– نعم عندى الرأى.. بل الحل أيضاً .

ثم نهض من مكانه وراح يقطع أمامه الخطـــوات جيئـــة وذهاباً وهو صامت .

ثم ألتفت تجاهه ودقق النظر إليه قبل أن يبادره قائلاً :

- وهل ستنفذ ما أقترحه عليك؟

أجابه هشام باستسلام :

- نعم .. نعم أنفذ إذا رأيت الأمر مناسباً .

اقترب منه وهو لا يزال على تركـــيزه، وكأنـــه يســـعى لتنويمه مغناطيسياً ثم قال:

- حتى لو كان الأمر غير مناسب.. يجب أولاً أن تضـــع فى كل ثقتك.. وأن، تجعلنى مناراً لخطواتك .

وقبل أن ينتظر منه إجابة .. استطرد قائلا بحزم :

- تنازل عن باقى نسبتك .. وأقبض الثمن .. وتخلـــص من كل أعبائك المادية والنفسية.. ثم تفرغ لى تماما بكيان جديـــد ونفس طائعة .. وسأجعلك تستعيد مكانتك وأموالـــك.. وتعيـــش نفس حياتك الماضية دون أدنى تغيير.. فأنت لديك كل مقومـــات رجل الأعمال الناجح .. والذكى . سواء لمظهرك أو لخـــبرتك الطويلة فى معاملة الأثرياء أمثالك سابقا .

- أنت تزيدنى حيرة.. ألا تخبرنى بوضوح عن حقيقـــة مايدور فى خلدك .

اتسعت ابتسامته الخبيثة وهو يقول :

– هذه الشرنقة التى وضعت نفسك بداخلها لن تسمح لـك بالتقدم خطوة واحدة.. عليك بأن تغوص فـي أعمـاق مجتمـع الأثرياء.. و .. الأثرياء فقط.. ومن خلالهم حتماً سـتعود إلـى مكانتك إذا تركت الأمر لى .. و ..

رد هشام متسائلا وهو على حالة من الدهشة :

– كيف .. كيف وأنت تعلم أنه قد تخلى عنى الجميع ..و..

قاطعه بلا تردد :

– ستكون لك علاقات جديدة .

أجاب ساخراً فى أسى :

– هل سأعلن فى الجرائد عن حاجتى لمجموعـة مـن الأصدقاء الجدد، على شرط أن يكونوا أثرياء .

حاول عبدالغنى أن يبتسم وهو يقول :

– وهل كنت تعرف شيئاً عن كل الجالسين حول موائدك؟

– أيضا مازلت لم أفهمك .

– أقصد أنك ستصبح كأى ضيف كان يشاركك سـهراتك وأحاديثك وأحلام مشروعاتك .. وأنت لا تعرفه .

وقف متوتراً وهو يقول :

– أتريدنى أن أصبح فى موقف المتطفل علـــى موائـــد الأثرياء.. بعد أن كنت ..

مرة أخرى قاطعه :

– ألم نتفق أن تضع كل ثقتك فىَّ .. يا هشام بك النـــاس يهمها فى المقام الأول مظهرك، ولا أحد يعلم إمكانيات الآخر إلا إذا تورط قانونياً .. ثم طريقة تقديمك للآخرين تعتبر من أهـــم مسئولياتى .

ازداد انفعاله وهو يقول :

– هذا نصب ..

أجابه ببرود :

أنا لم أطلب منك أن تكون نصاباً.. بل أحاول أن أضعـك على الطريق السليم..وقد يكون هذا أقصر طريق لسليمان بك .

– أنا أشعر بالضياع .

– وأنا أشعر بأنك سوف تستجيب .

تساءل بحذر :

- وما هى مصلحتك يا عبدالغنى .

- لا تخجل تواضعى يا هشام بك .. فأنت صاحب فضل علىَّ .. وعلى كل حال عليك أن تفكر جيداً قبل اتخاذ أى قرار.. وستجدنى دائما فى خدمتك..

وكأنه بهذه العبارة الأخيرة أراد أن يعلن له بأن المقابلـة قد انتهت .

ووجد هشام محمود نفسه يتجه إلى الباب الخارجى فـــى صمت ذليل، وبدا شارداً كما لو كان بدأ رحلة التفكير من هـــذه اللحظة .. وما زاد توتره أن الآخر لم يحـــاول أ، يســتوقفه أو يستبقيه ولو على سبيل المجاملة .

وما كاد يتوارى خلف الباب فى طريقـــه للانصـــراف، حتى توقف فجأة على صوت عبدالغنى وهو واقف مكانـــه دون حراك .. قائلا :

- هشام بك .. هل ذكـــرت لـــى أن رجـــاء مصطفـــى أصبحت صاحبة فندق رأسِ البر .

غاب مع لحظة سكون قبل أن يستجمع الأحـــرف فـــوق شفتيه.. ثم همس بنبرة مخنوقة.. متسائلا :

- لم أكن أعلم أن ذاكرتك قوية يا عبدالغنى .

قال وهو على ثباته :

- بالنسبة للأشياء الهامة فقط .

أجابه بتهكم :

- وهل تعتقد أنه لايزال هناك شئ هام فى حياتنا ؟

وقبل أن ينتظر منه إجابه، أغلق الباب من خلفه وتــوارى منصرفاً .

***

(٣)

كل شئ بدا مشرقا .. إلا هو ..

السماء تبدو كأنها وشاح شفاف من شدة صفائـــها، ثابتــة مستقرة فى هدوء وأمان.. إلا هو ..

والشمس تزهو بشعاعها الدافئ الحنـــون وهـــى تتوســط السطح الأزرق فى عزة وكبرياء إلا هو ..

كان هشام محمود على نقيض كل ما يحيط به، وهو يقـود سيارته فى طريقه إلى رأس البر .

شئ ما دفعه إلى اتخاذ قراره للذهاب إلى هناك، إحســاس غريب كان يلح على وجدانه لكى يعود إلى حيث هرب المـــرة الأخيرة، ولكنه لم يعد هارباً.. وهو يدرك هذا، فهروبـــه الأول كان من أجل الآخرين والآن لم يبق لديه سوى جذور الأحــزان التى غاصت فى داخل أعماقه، وكذلك دوامات الحـــيرة التـــى أسقطته بداخلها لتجذبه إلى جوف الطين تارة ثم تطفو به إلـــى سطح اللهيب تارة أخرى. حاول أن يتحايل على هواجسه ليثبـت لنفسه أنه لم يقع تحت تأثير عبدالغنى الذى نفذ اقتراحه بـــالفعل، وصفى نسبته فى الشركة مقابل عدة آلاف قليلة من الجنيـــهات كان ينفقها خلال شهر واحد من حياته السابقة، وبالرغم من هـذا منحه ذلك المبلغ بعض الطمأنينة لعله لن يحتاج إلى أحــد ولـــو

ليوم واحد.. كما حاول أن يقنع نفسه بأنه قادر على وقف نزيف اليأس الذى بدأ يتسرب إلى عروقه منذ تلقيه طعنته الغـــــادرة.. طارد أفكاره الشريرة التى دأبت على محاصرته أخيراً لتوحـــى إليه بالذنب تجاه رجاء مصطفى .

ولكنه فشل فى كل محاولاته .

صورة عبدالغنى التى كانت تعظم فى مخيلته لتتربع علـى قمة الخسة والنذالة، وبالرغم من ذلك كان هو الوحيد الذى حاول أن يشاركه الحل فى مأساته حتى ولو كان على حساب الكثــير من كيانه ووجوده .

وأصدقاؤه الذين ذابوا فجأة من حوله وكأنهم قطـــع مــن الثلج قد تناثرت فوق سطح ملتهب .

أما سليمان بك فكان يرمز بالنسبة إليه للقوة الباطشـــة.. القوة التى تملك فرض الكراهية فى صورة الحب، والتى تملـك تقديم لعاب الشيطان فى صورة الترياق.. أما هو فلم يكن يملـك حيال ذلك غير الاستجابة مقهورا .

بدأت الشمس تلملم أشعتها فى لحظة وصوله إلـــى فنـدق الأمل .

تقدم نحو موظف الاستقبال وبادره متسائلا عـــن وجـود غرفة خالية، وقبل أن يتلقى منه الإجابة راح يلتفت فى كل اتجاه

وكأنه يبحث عن تائه تذكره فجأة، مما دفع فضـــول الموظـف مردداً :

- هل بإمكانى تقديم المساعدة لحضرتك ؟

- لا .. ولكن .. أقصد أين أجد رجاء هانم ؟

ابتسم الشاب بهدوء وكأنه يتساءل عن سبب تردده.. ثـــم تجاوزه بنظرة بعيدة.. وقال هامساً :

- كأنها سمعتك .

وهو يشير برأسه لحثه على الالتفاف، وما كاد هشام يفعل حتى سرت قشعريرة مباغته فى كيانه بمجرد أن التقت نظرتـــه مع وجه رجاء مصطفى المشرق كعادته .. وقبـــل أن يســـانده تفكيره للتصرف فوجئ بها تندفع نجوه بفرحة واضحة والشـوق يسبق خطواتها.. ثم قالت :

- كنت أعلم أنه صباح مشرق .. لست أدرى ما الـــذى جعلنى أتوقع قدومك اليوم .. بالرغم من أننا بلا موعد .

حاول أن يستجمع شتات مشاعره المرتبكة .. وهو يقول :

- هذه المرة أستطيع أن أؤكد بأننا على موعد .. لأننـــى لم أحضر إلى هنا إلا من أجلك .. فأنا ..

قاطعته بأسلوبها اللامبالى :

- إذا كان الأمر كذلك .. فلنذهب إذن إلى مكان اللقاء .

وقبل أن يتفوه بحرف واحد .. تركته لحظـــة أصـــدرت خلالها تعليماتها لأحد عمال الفندق بأن يذهب بحقيبة الزائر ألـــى نفس الغرفة السابقة ثم التفتت نحوه قائلة :

- هيا .. لا تتباطأ لقد حان موعد اللقاء .

واندفعت أمامه تسبقه بخطوات مرحة كعادتـــها .. تـــارة تتراجع بظهرها لتكون فى مواجهته وتارة أخرى تتوارى معـــه فى الخطى .. وهى ما تزال على ثرثرتها :

- أرجو أن، تكون قد استمتعت بوقتك فى القاهرة .

حاول أن يتكلم .. ولكنها لاحقته .

- مستحيل طبعا.. هناك كل أصدقائك .. ومعـــارفك .. و.. وأحبابك .

- فى الحقيقة .. أنا ..

- لا تقل شيئاً .. المهم أنك عدت مـــرة ثانيـــة.. وهـــذا أكبر دليل على أنك قد شـــعرت بالراحـــة فـــى رأس الـــبر.. وكذلك بالأمـــان .

وهى ترمقه بنظرة سريعة.. لم يجد صعوبة فى فهم مـــا تقصده .. وبدأ أكثر جرأة وهو يقول :

- أنا فى حاجة إليك .. اقصد ..

- ستجدنى دائما رهن تصرفك .. ورغباتك .

وما أن جلسا بالقرب من ربوة صخرية فــى مواجهــة أمواج البحر الهادئة، حتى بدأ يسترسل فى الحديث، وكأنه جهاز تسجيل أعاد على مسامعها كل أحداث الفــترة الماضيــة التــى قضاها فى القاهرة، وهى تنصت إليه لأول مرة باهتمـــام بــالغ وتأثر واضح، لم تستطع ابتسامتها الرقيقة أن تخفيه .

ثم قالت بتركيز شديد :

- وأنت .. ما هو قرارك ؟

وقف منتفضاً .. وكأنه تذكر أنه ملزم باتخاذ قرار ما فــى مشكلته.. ثم أسقط نظرته نحوها وهى جالسة تراقبه .

وقال والحيرة تعبث بنبراته :

- لست أدرى ..

مالت برأسها فى اندهاش .. واستطرد قائلا :

- صدقينى .. لست أدرى .. فأنا حضرت إليك .. لأنـك الإنسانة الوحيدة التى ظلت على وفائها .. وأنا فى حاجة إلـــى مشورتك .. لست أدرى .. أنا متعب، وأشعر بالضياع يكبلنى .

نهضت بهدوء .. ثم استدارت مــع بعــض خطــوات ..

والتفتت نجوه بعد برهة وقالت :

– لم أكن أتصور أن هناك بشراً بهذه الكيفية .. صورتهم أمامى وكأنهم وحوش بلا عقل ولا ضمير .

مضت لحظات صمت وكأنها سقطت سهواً من الزمـــن، وكل منهما ينظر إلى الآخر دون أن يحاول التدخل فـــى ذلـــك الحديث الصامت الذى جمع بينهما فجأة.. بينما أستسلم هو لنبتـــة جديدة زرعت فى وجدانه ، شعر تجاهها بالأمل من جديد يـــدب فى حياته .

وبدأت تلك اللحظة تنسج خيوط الزمن بينهما.. فتعـــددت اللقاءات.. ونضجت العبارات وكثرت الأمنيات، وكأنها طقـــوس جديدة تتراقص مبتهجة لاستقبال الوليد الجديد الذى أنعمت بـــه عليهما الدنيا.. واستطاب لكليهما أن يسمياه .. الحب .

كان لهذا الإحساس أكبر الأثر فى حياتهما الجديدة.. بـــدت رجاء مصطفى مستقرة الحال.. هادئة البال .. فى حديثها عذوبة وفى لفتاتها معنى كبير تحركه كوامن أنوثتها.. كـــانت تطيـــل النظر إليه سواء أكان فى حوار معها أم كان منشغلا عنها .

بينما تقلصت رجفات الإحباط فى أعماق هشام محمـــود، وبدأت الآمال تهاجم بقوة كل إحساس بالعجز راوده من قبـــل.. سعادته طغت على تفكيره فأنسته جراحا سكنت كيانه قهراً، وبدأ يستقطب كل نبضات التآلف نحوها، إلى أن بـــات لا يســـتطيع

افتقادها ولو للحظة واحدة .

هبطت بكفها فوق يده.. شعر بأناملها وكأنها مظلة ناعمة الملمس حلقت فوقه فجأة لتقيه من لهيب الشمس الذى استوطن صدره، وزوابع الخريف التى طالما عبثت فى أعماقه.. فدفعه الأمان لأن يقول بصدق :

– أحبك .. أحبك يا رجاء ..

سحبت كفها فجأة، وكأنها تلامست مع ماس كهربائى، واندفعت حُمرة الخجل إلى بشرة وجهها.. ثم قالت بعد لحظة صمت مترددة :

– جعلتنى أشعر بالندم ..

هاجمه إحساس بالخوف قبل أن يتساءل :

– هل أخطأت .. إذا ..

لاحقته وهى لاتزال محتفظة بأسارير الارتباك :

– لا.. لا.. بل كنت أتمنى أن أبادرك أنا أولاً.. لأننى تعايشت مع أحاسيسى نحوك منذ فترة طويلة.. أنا يا هشام أحبك.. وسأحافظ على حبك إلى آخر قطرة فى دمى.. لقد أصبحت أنت كل شئ فى حياتى.. أنت حياتى نفسها.. وعمرى .. وأهلى.. ومستقبلى .. و ..

وصمتت مستسلمة لعناقه فى قبلة حانيـــة، أذابــت فــوق شفتيها كل مشاعر الحب والشوق .. والأمان .

تخلصت منه برفق وبدأت تخطو بجانبه وهما مستســلمان لدغدغة النسيم العائد مع الأمواج بعد رحلة طويلة قطعــها مــع المجهول، وجذبته النشوة لآن يبادرها قائلا :

– أريد أن أبدأ حياة جديدة معك.. حياة لا ماضى لــها.. بعيدا عن مخالب الحقد والخداع.. بعيدا عن مطامع الآخريــن.. بعيدا عن ..

قاطعته ضاحكة :

– كفى .. أخشى أن تقول بعيدا عنى أنا أيضا .

أحاطها بذراعه وهو يستنشق الهواء بعمق، وكأنه يريد أن يذيبها داخل رئتيه .

ثم توقف فجأة أمامها.. قائلا :

– اسمعى يا رجاء.. أنا لا أريد العودة إلــى القــاهرة.. ارغب فى الإقامة هنا إلى الأبد.. بجوارك .. أنا ..

ثم تناول يدها وواصل الخطى .. واستطرد :

– أنا أملك عدة آلاف قليلة.. يمكن أن أستغلها فى عمــل نظيف بعيدا عن أفكار عبدالغنى وأمثاله.. ما رأيك لــو أقمنــا

بعض التجديدات فى الفندق. وجعلناه صالحاً لاستقبال المزيد من النزلاء ؟

- يسعدنى بقاؤك هنا .

- ألا يسعدك أن نكون شركاء أيضاً .

رفعت رأسها إليه فى نظرة مسالمة حانية.. وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة.. لاحقها بثبات وإصرار :

- هل تتزوجيننى يا رجاء ؟

وما كاد يستكمل كلماته حتى فوجئ بها تعدو من أمامه منطلقة بأقصى سرعتها وهى تقاوم رمال الشاطئ الرطبة، حتى توارت عن عينيه وسط ظلام الغروب.. وكأنها حان موعد عودتها مع رحيل الشمس .

بينما سكن هشام محمود فى مكانه وقد أعجزته المفاجأة عن التصرف السريع، فلم يستطع التحرك لمتابعتها، كما أنه لم يقو على استيعاب تصرفها فى حينه .

قطع الطريق إلى الفندق وهو يغوص بين احتمال وآخر.. متسائلا فى صمت.. أكان مخطئا أم متسرعا؟.. هل تجاوز حدوده ؟.. راوده إحساس ما بأنها لم تستطع التخلص من طعنته لها فى الماضى ولكنه سرعان ما طرد ذلك الخاطر عندما استعاد فى ذاكرته كلماتها التى عبرت من خلالها عن حبها له .

وهناك .. اتجه مباشرة إلى موظف الاستقبال يسائله عــن عودة رجاء إلى الفندق، ولكن الرجل خيب آماله وأسقطه فـــى دوامة الحيرة عندما نفى عودتها .

وما كاد يخطو خطوة واحدة حتى تصلبت شرايين قدميـه، وشعر بالدوار يزحف إلى رأسه عندما فوجئ بسليمان بك يجلس عند أحد الأركان بمفرده .

أقنع نفسه بأن مايراه ما هو إلا ســراب أو شــبيه لــه.. استعاد توازنه بعد لحظات.. وبدأ يقـــترب منـــه ليتـــأكد مــن شخصيته، إلا أنه كلما اقتربت خطواته منه تـــأججت أحاســيس الكراهية فى صدره، وتناصرت أفكاره المضطربة فى غموضها ولكنه كان حقيقة.. هو بنفسه سليمان بك .

الرجل المتأنق دائما. الذى يسبقه غروره قبل كبريائه .

والتقت نظرتهما فى لحظة واحدة، لحظة تحولـــت إلـــى مخلب شرس راح يمزق ستائر الماضى وينبـــش فـــى أعمـــاق أعماقه ليمزقه ويمزقها.. لحظة شعر بها هشام محمـــود وكـــأن الحياة قد ماتت وسقط القمر منتحراً فى جوف الظلام .

و .. بادره سليمان بك وهو يحاول الوقوف :

– إنها والله أشبه ما تكون مثل عجائب الدنيا الســـبع .. معقول .. معقول أراك هنا وفى هذا المكـــان بـــالذات .. إنـــها مصادفة عجيبة كيف حالك يا هشام بك ؟

ازدرد هشام ريقه قبل أن يجيبه، وكأنه آثر أن يبتلع حقده أولا .. ثم قال :

– أهلا سليمان بك .. فى الحقيقة إنـــها مصادفــة غريبـــة.. فأنا..

قاطعه ببرود:

– تفضل أولا .. دعنا نجلس فأنا فى شوق إليك.. وإلـــى أخبارك .

جلس هشام قبل أن يقول :

– فى الحقيقة أنا معتاد الحضور إلى هذا المكان.. فـــهو يقع فوق بقعة جميلة، واشعر بالارتياح فيه .

أجابه بلا تردد :

– أشكرك ..

فى هذه الآونة تحدث هشام إلى نفسه قائلا فى صمـــت.. يالك من إنسان لزج وثقيل الدم ..

ثم استطرد بصوت مسموع :

– وأنت .. ترى ما هى الظروف والمقادير التى دفعتــك للحضور إلى هنا ؟

ابتسم ابتسامة باهتة قبل أن يجيبه باقتضاب :

- عملى ..

- عملك !! ..

قال بسخرية مستفزة :

- ما بالك يا هشام بك .. أتظننى بلا عمل ؟

كظم غيظه وهو يقول .

- أنا أعلم الناس بأن لديك أعمالاً.. ولكنى كنت أقصد عن سبب زيارتك لهذا المكان بالذات .

أجابه بشئ من الجدية :

- أتريدنى أن اقسم لك بأن هنا عملى أيضاً .

صمت هشام محمود مندهشاً لهذا المتطفل الذى ظهر فى وقت غير مناسب، بينما أردف سليمان بك قائلا فى تأكيد:

- يا سيدى .. أنا صاحب ومالك هذا الفندق .

انتفض واقفاً كأنه لدغ من عقرب شرس..ثم دقق النظر إليه برهة وقال :

- إذا كانت دعابة .. فأنا أعتد الضحك على السخافات .

وقف الآخر فى ثورة مكبوتة :

- سخافات .. ما هذا الأسلوب يا هشام بك؟ .. يبدو أنك

فقدت رشدك .

لاحقه هشام متحدياً .

– أنت الذى تسخر منى.. كيف تكون صاحب هذا الفندق وأنا على يقين بمعرفتى لصاحبته ؟ .. ثم ..

ثم نظر إلى عينيه بازدراء وهو يقول بتهكم :

– ثم إنها كانت ذات يوم سكرتيرتى .

وبلا تردد أجابه :

– أجل اعلم .. ولكنها مجرد موظفة فى الفندق.. تعمل لحسابى هنا.. وعلى كل حال ما أهمية الأمر بالنسبة لك ؟ .. أنا سعيد برؤيتك ومرحباً بك فى أى وقت .

شعر بالأرض تميد من تحت قدميه.. ثم قال بنبرة منكسرة :

– هل تسمح لى بالصعود إلى غرفتى.. فأنا أشعر بشئ من الإرهاق .

– تفضل يا هشام بك .. فأنت ضيفى منذ هذه اللحظة وسأخطر الإدارة بذلك .

– أشكرك ..

قالها وهو يستدير منصرفاً جاهداً فى أن يخفى الرجفات

العنيفة التى هاجمت كيانه .

وما إن وصل إلى نهاية الردهة حتى توقف باهتزاز على صوت رجاء مصطفى وهى قادمة من البوابة الخارجية للفندق .. تناديه :

– هشام .. هشام ..

التفت نحوها .. والذبول يملأ عينيه.. وعند اقترابها منه همس إليها وهو يشير برأسه تجاه سليمان بك الذى عاد إلى جلسته .. قائلا :

– هناك من ينتظرك يا رجاء هانم .. أسرعى قبل أن تثيرى غضبه ثم تركها منصرفا، دون أن ينتظر منها ردا .

تهاوى هشام محمود فوق فراشه، مثلما تهاوت أحلامه الوردية إلى حيث بئر الأحزان السحيق .. أدرك بأن كوكب الشؤم كان ولايزال يقتفى أثره فى كل مكان، وبأنه بات ملتقى كل اللحظات الأليمة الطريدة منها والشريدة فى حياة البشرية جمعاء .. بدا محبطا كطائر السمان الذى واصل الليل مع النهار فى رحلة طويلة قاصدا الأمان وهو يجهل أنها رحلة الأحزان .

شعر بالاختناق يطبق على صدره.. نهض فى تثاقل واتجه إلى النافذة باحثا عن نسمة قد تضل الطريق وتصل إلى رئتيه، ولكنه اصطدم بأحاسيسه المتشائمة، وبدا فى عينيه البحر

بأمواجه وكأنه بركان يغلى بأنفاس الشيطان .. والنسمات سـياط تهوى على وجهه بلا هودة .

وغاب فى مناجاة مع نفسه متسائلا :

.. أين هو الحب إذن.. أهو حقيقة أم خيال .. لابد أن كل المشاعر الإنسانية لا تنبض إلا بقرينها .. الرياء يتلفح بالوفاء.. والشقاء يتشح بالصفاء. والأحزان ترتل الحنان، أين أنا فى هـذه الدنيا.. أين الإنسان ؟

استدار فجأة وقد لمع البريق فوق مقلتيه وهو يجاهد فـى إصرار وعزة بالا يسقط هذا البريق من بين جفنيه، خشـية أن تكون دمعة حائرة .

وبدأ فى حزم حقيبته مقتنعا بقرار الرحيل .

تمالك ثورته وهو أمام موظف الاستقبال الذى ابلغه بـأن سليمان بك دفع عنه حساب فترة إقامته بالفندق.. فتركـه غـير شاكر. ودلف داخل سيارته، وما كاد يسير بها عدة أمتار حتـى توقف فجأة عندما لمح رجاء مصطفى وهى تعدو وراءه علـى قدميها متوسلة بأن يتوقف .

اقتربت منه لاهثة ثم جلسـت بجـواره تلتقـط أنفاسـها بصعوبة .. وهمست :

– من فضلك .. امنحنى الفرصة لكى أدافع عن نفسـى..

رجوك لا تكرر موقفك السابق منى .. ودعنا نبتعد قليلاً عن هذا المكان .

وكالمسحور تحرك بالسيارة صامتاً إلى أن وصل إلى المكان الذى شهد لقاءاتهما المتكررة فى ظل الحب الزائف كما بدا له .

وهناك بادرته بنبرة منخفضة :

– أنا لن أنكر علاقتى بسليمان بك.. ولكن.. من واجبك أن تنصت للظروف والأسباب التى دفعتنى لأن أخفى عنك حقيقة تلك العلاقة .

لم يرد بحرف أو إشارة .. فأردفت قائلة :

– كما أننى أعلم أن نظرتك لى الآن كأى امرأة كاذبة، وقد تكون ساقطة أيضاً. ولكن ..

قاطعها بحدة :

– يا رجاء هانم .. أنا لم اطلب منك تبرير موقفك . ولن أطالبك بهذا .. و ..

لاحقته بإصرار منفعلة :

– أرجوك .. أنا لن أنتظر منك أن تطالبنى.. كل ما أرجوه أن تفسح لى صدرك لتنصت إلى.. وأنت صاحب القرار فى النهاية .

وقبل أن يجيبها.. تركت السيارة وسارت بضع خطـــوات فوق رمال الشاطئ الناعمة، فتبعها مستسلما وهو يغوص بقلبـــه الحزين فى أعماقه .

ثم توقف خلفها وهى مولية إياه ظهرها.. متجهة بنظرهـــا إلى سطح البحر الهادئ وكأنها تنادى أحداث الماضى من أعماق القاع. وقالت بصوت مسموع :

– منذ الحادثة المشئومة التى راح ضحيتها كـــل أهلـــى عندما انهار منزلنا القديم وانهارت معه كل حيـــاتى.. حـــاولت المستحيل لمقابلتك لكى تشفع ظروفى عندك.. بالرغم من أننـــى مظلومة تماما، لجأت إلى عبدالغنـــى لعلـــه يصـــل بصراخـــى وتوسلاتى إليك، ولكنه الآخر كان سلبيا غير مبال.. تلفت حولى أبحث عن مكان يؤوينى وكأنى اكتشفت فجأة أننى بلا أب ولا أم ولا أخوة ولا أقرباء.. إحساس بـــالوحدة كـــاد يدفعنـــى إلـــى الانتحار وكان قرارى بالانتحار.. ولجأت إلى ســـليمان بـــك عسى أن يشفع لى عندك.. أو أجد عنده العون.. شـــرحت لـــه ظروفى كاملة.. استحلفته بإنسانيته ، تلمست الرحمة فى قلبـــه.. وكأن الدنيا قد فتحت ذراعيها لتحتضننى من جديـــد، وأشـــرقت شمس حياتى فجأة.. عندما أظهر لى المودة والرحمة .

صمتت برهة قبل أن تواصل قائلة :

– وياليتنى كنت انتحرت غرقا فى النيل قبل أن يكـــون

انتحارى فى هذا الوحل والفسق الذى دفعنـــى إليــه، مســتغلا حاجتى.. ومع مرور الوقت اكتشــفت أننــى مجــرد خليلــة.. عشيقة.. لا تملك غير أن تستجيب وإلا كـــان مصــيرى هــو الطريق.. طريق كل جائع غليظ القلب.. استكنت على أمـــل أن يوفى بوعده ويتزوجنى كما أخبرنى فى السابق .. ولكنه فجــأة كعادة أمثاله من الوحوش اكتفى بما التهمه من جسدى وارتــوى مما رشفه من أنوثتى وشرفى .. وكان علـــى أن أختــار أحــد الأمرين كى تحل الأخـــرى مكانى .. فإمـــا أعود لحياة شــريدة لا يعلم إلا الله ما هو مصيرى وإما أقبل هذا الوضع الجديد الذى ترانى عليه الآن .

تقدمت بخطوتين تجاه البحر، وكأن فكرة الانتحار قـــد راودتها من جديد.. وجد نفسه يتبعها فى صمت وهـــو متـــأهب لإنقاذها.. بينما أردفت هى قائلة بتوتر :

– أنا أعلم أن العذاب لا يزال يرصدنى، وقدرى اتخـــذ قراره بالا أشعر بالأمان يوما.. لم يعد لى أمل بعد اليوم، وكـأن كل نبضات الصدق والتمنى قد رحلت عن هذه الدنيا.. أو قـــل دنياى أنا فقط .. لا أحد يهتم بى .

أشعر بالشيخوخة تدب فى شرايين كيانى.. لماذا أعيــش إذن ؟ ولمن ألجأ .. و..

همس بعد صمته الطويل :

- لى أنا ..

التفتت بهدوء، والنسمة تداعب خصلات شعرها.. أحـــس بزلزال يهز كيانه هزا عنيفا بمجرد رؤيته لسلاسل الدمع الـــذى كان يزحف فى تتابع من عينيها، وقبل أن يبادرها بأى حـــرف، فقد قدرته على التماسك واندفع نحوها يستقبل اندفاعـــها نحـــوه والتقيا فى عناق صامت طويل.. وامتزجت مشاعرهما فى لهفـــة ظمآنة للحب والوفاء .

ثم قال بصدق :

- لا تخشى شـــيئا يا رجـــاء .. ســـــأظل بجانبك إلـــى الأبد .. و..

قاطعته من خلال نبرتها الباكية:

- مستحيل .. مستحيل .. أنا أعلم أنك تشفق على، ومـــا هى إلا لحظات وتعود إلى عقلك .. وتقرر الرحيل وتتركنى .

أجابها بانفعال وإصرار :

- أقسم لك بأننى لن أفعل .. ولو كلفنى هذا أن أرحل بك بعيدا عن هذه الدنيا التى لفظتنى قبل أن تنتبه إليك.

رفعت رأسها إليه، وغاصت بنظرتها فى عينيه قبـــــل أن تقول :

- هل تحبنى حقا يا هشام؟ .. وهل ستغفر لى بعد كل ما سمعت ؟

- الحب زاده المغفرة.. الحب لا ينبض إلا فى سلام .

أعادت رأسها مرة أخرى على صدره .. ثم قالت :

- أحبك يا هشام .. سأضع عمرى كله بين يديـــك.. إذا كتب لى الحياة فسأمضيها فقط لإسعادك .. ومن أجلك .

- رجاء.. دعينا نرحل بعيدا عن الشر.. نـــترك النـــار تأكل نفسها.. دعينا نبدأ حياتنا من جديد.. نبحث عن بقعة آمنـــة ونستقر فوقها .

همست ببراءة :

- ماذا تقصد يا حبيبى ؟

أسرع يقول بحماس :

- ننسى الماضى .. أنا وأنت كل منا تعايش مع كـــابوس شرير، يجب علينا أن نمحوه من ذاكرتنا.. و..

فجأة تراجعت إلى الوراء وهى تطيل النظر إليه شـــاردة.. مما دفعه لأن يسألها مندهشا :

- ماذا بك يا رجاء ؟ .. هل ..

لاحقته بأسارير عابسة :

– ننسى .. تقول ننسى الماضى؟ .. كيف أنســـى وأنــا عمرى كله ماض.. كيف أنسى أنات الليالى الكئيبة التى عشــت فيها.. ليالى تاه منها القمر.. كيف أنسى عذاب الدنيـــا وســـياط الحقد التى مازالت بصماتها فوق جسدى .. ثم ..

تقدمت نحوه قائلة بإصرار :

– وأنت .. أنت كيف تنسى ما فعلته بك مكائد النفـــوس الشريرة؟ كيف تنسى لحظات قهرك بعد كل الكبرياء التـــى كنت عليها.. أهذا كل ما فكرت فيه بعد معاناتك.. أن تهرب من مواجهة الواقع.. أن تستلم لمن أذلوك وتطيع من دمرك؟

– أنا لا أفهمك يا رجاء .

قالت بتحد :

– بل تفهم جيدا.. ولكنك تفضل أن تبدو غير فاهم.. ثـــم كيف ستظل بجانبى وتحمينى، وأنت ترفض حتى حماية نفسك؟

– فيما تفكرين ؟ .. أراك ..

لاحقته قائلة :

– سليمان .. سليمان بك هــو العــدو المشــترك بينـــى وبينك.. هو الذى دمر حياتى وحياتك.. هو الشيطان الذى نـــثر شروره وأحقاده فوق طريقنا.. سليمان بك الذى اغتصب أغلـــى ما عندى ومزق إنسانيتى بلا رحمة.. وهو الذى دبر كما تعلـــم

الصفقة الخاسرة التى هوت بك إلى هذه الحالة .

- ولكن ..

لم تمنحه فرصة الكلام .. واستطردت :

- كنت أعيش على أمل أن تحين الفرصة لأستعيد قـواى وأسترد حقوقى التى لا تقدر بمال من هذا الظـــالم .. وعندمـــا ظهرت أنت فى حياتى زاد أملى وأدركت أن نهايته قد قربــت.. ثم تأتى الآن وتقول هيا نرحل ..

استدارت منفعلة وهى تردد :

- أبدا .. أبدا لن يحدث هذا .. ولو ضحيت بـــأغلى مـــا أملك.. وهو حبك .

أسرع كالمسحور :

- ولكن .. كيف ؟ ..

واجهته مرة أخرى .. ثم أجابت :

- لا تسألنى الآن كيف .. المهم، توافقنى .. ثم اترك لى الأسلوب.. ولا تنس أننى قريبة جدا من كل أســـراره، وأعلـــم الكثير عن أعماله وأسلوبه فى كل تعاملاته .

زحفت بخطوة واحدة نحوه .. والتصقت بصــــدره مـــرة ثانية.. ثم همست :

– أرجوك يا هشام .. ساعدنى لكى أطفئ لهيب الحسـوة فى صدرى .. لا تجعلنا نبدأ حياتنا على أنقاض هذا المــاضى الرهيب أو نفترق .

أفلتت منه صيحة بلا إرادة :

– لا .. أنا حقا كنت راضيا بما أرادته الأقدار.. ولكن .. إذا كان هــذا الماضى سيتسبب فى فراقنا .. فأنا مستعد حتـــى للقتل .

ترقرقت ابتسامة هادئة فوق شفتيها قبل أن تقول:

– لن يصل الأمر إلى هذا الحد.. فقط عليــك أن ترحــل الآن حتى لا يلحظ ما يدور بيننا.. وسوف أكون فى انتظـــارك بكل الشوق بعد رحيلة .

قال بتشكك :

– كم سيمكث ؟

– لا تخش شيئا .. أقسم لك أنه لن يقربنى بعـــد الآن .. المهم عندى شئ واحد .

– ما هو .. ؟

قال بجدية فائقة :

- عبدالغنى .. هذا الرجل عليك باستقطابه من جديد بأية صورة .. سنحتاج إليه كثيرا فى هذا الأمر .

حاول أن يستفسر ببضع كلمات، ولكنها قاطعتـــه وهـــى تتأهب للرحيل بمفردها :

- سأنتظرك ياحبيبى .. سأراك قريباً .. و ..

انطلقت تجرى بحيوية بالغة .. بينما مـــرة ثانيـــة وقــف يتابعها حتى توارت عن عينيه وهو مشدوه وكأنه فى حلم كثـــير الأحداث .

***

(٤)

العاشرة مساء ..

هشام محمود متردداً أمام الباب الخارجى لمنزل عبدالغنى..

كان يعلم أنه مقبل على نقطة تحول فى حياته تتطلب منه العديد من التنازلات. كان مدركاً بأن الطريق الجديد الذى اتخذ قراره بالسير فوقه لن يسمح له الخطى بغير الكثير من القرابين، كان عليه أن يتناسى أكذوبة المبادئ والقيم وكل أحاسيس الكبرياء والعزة .

وبدأ مع أول طرقه على الباب يتقدم بالقربان الأول وهو يواجه عبدالغنى فى صورة جديدة تماماً، تسبقه المودة الزائفة والرضاء المقهور . واستطاع عبدالغنى بما له من خبرة ودهاء، أن يستمثر تلك الحالة التى ظهر عليها رئيسه السابق، لم يسأله عن شئ ولم يحاول أن يجتر معه ذكريات الماضى بل سارع فى تنفيذ مخططه بدقة متناهية ورغبة متفانية فى تحقيقها .

ومع بداية المشوار، بدت الأمور تتكشف أمام هشام الذى شعر بالاغتراب وسط المجاميع المختلفة بالرغم من اعتياده على مثيلتها فى السابق.. ولكنه الآن كان أقرب للهمسات واللفتات والمكائد وللأحقاد والمؤامرات الخفية عما كان عليه وهو ذو شأن وسلطان.. رأى بعينيه الصديق وهو يخلع عن وجهه قناع

الزيف ليفترس صديقه وسط ضباب اللاوعى ..

وسمع الأقاويل المستترة وهى تتناقل فوق شفاه المدعوين عن صاحب الدعوة.. راقب الأصابع الرقيقة وهو تتحول بحذر إلى مخالب حادة لتنقض فجأة بطعنة غادرة فى قلب الوفاء.. اخترقت رئتيه رائحة الخسة والنذالة من خلال أنفاس الحق وهى تتشابك كالشرنقة حول الثرى المخدور والمبهور بكلمات النفاق والرياء .

حتى هو لم يفلت من محاولة إشراكه فى هذه الوليمة المقززة لتكشف عن أسوأ صورة للنفس البشرية عندما تضل الطريق. فسكن صامتاً وهو يتلقى ين الحين والآخر بعض الهمسات الخفية التى تدور عن صاحب الدعوة الثرى المدلل فى نظر نفسه، والأبله فى نظر الآخرين من حوله .

تهمس إحداهن فى أذنيه قائلة :

– سبحان من غير الأحوال، يقال إنه كان فقيراً ثم هبطت عليه الثروة فجأة، وأعتقد أنه يتاجر فى المخدرات .

ويميل عليه آخر يحدثه دون سابق معرفة :

– أنا مندهش كيف تحيط به النساء بهذه الكثرة.. ولماذا.. بالرغم أن معلوماتى عنه أنه يعانى من عجز جنسى ؟

ثم تتدخل أخرى فى الحديث الهامس ورائحة الخمر تفوح من فمها :

- مسكين هذا الرجل . أتعلم أن كل الحفلات التى يقيمها ماهى إلا مناورات لكى يلفت نظرى إليه.. يريدنى زوجة لـه .. ولكنى مازلت أفكر. هذا النوع لا يروق لى .

ويزحف أحدهم بنبرة طائشة غير محددة الاتجاه قائلا :

- عجيبة الدنيا .. تمنح المال للبغال.. ارأيـت أنـه لا يعرف كيف يتحدث، أنه لا يفهم شيئا مطلقاً .. يكفى أنه يشـترى الناس بأمواله .

وإلى هذا الحين لم يهتز هشام محمود من كل مـا يـدور حوله.. إلا أن الموقف تغير تماماً بالنسبة إليـه عندمـا أنتبـه لعبدالغنى وهو يدور ويحوم حول رجل الأعمال الثرى ويمـلأ أذنيه بنفس العبارات التى كان يتلوها عليه فى السابق.. نفـس التصرفات والتلميحات.. نفس الإيمـاءات والإشـارات.. كـان يقترب كالفراشة ثم يطلق طنينه فى الآذان كالنحلة .

وبعودتهما مع مطلع الفجر، لم يستطع هشـام أن يخفـى إحساسه تجاه عبدالغنى، وحيرته من أمر هذا الرجل الذى كـان ساعده الأيمن طوال سنوات عديدة. فانتحى جانباً بالسيارة يراقب سطح النيل الهادئ وهو يتهادى بوقار يدخل فى قلب كـل مـن ينظر غليه بإحساس من الرهبة والإباء فى نفس الوقت .

ثم التفت تجاه عبدالغنى الجالس بجواره مستكينا.. وقال :

- لم أكن أعرف أن مواهبك متعددة وهامة كما رأيتك اليوم .

ابتسم بلا مبالاة وهو يقول مقتضباً :

- الدنيا مدرسة .

قال وهو يدقق النظر إليه :

- ولكنك نسيتنى تماماً.. وتركتنى وسط الآخرين كالغريب التائه وهذا لم نتفق عليه .

اهتم قليلا وهو يجيبه :

- ألم تكن تجلس مثلهم.. وتأكل وتشرب وتتحدث وترى مثلهم.. و تستمع أيضاً؟ .. إذن ما الذى يحيرك أو يضايقك ؟

- أنت الذى تحيرنى .

رمقه بنظرة خاطفة فى صمت .. بينما استطرد هشام قائلاً :

- لقد كنت تتصرف مع الرجل تماماً كما كنت تفعل معى.. تهمس إليه بنفس الهمسات .. تنتقل بين هذه وتلك ثم تعود إليه .. و..

قاطعه باستهتار :

- لا تشغل بالك بمثل هذه الأمور .. ثم ..

ودس يده فى جيبه وأخرج ما يقرب من الألف جنيـــه .. وأردف :

– هل تريد نقوداً ؟

ابتسم هشام بمرارة وهو يقول:

– إلى هذا الحد.. على كل حال هنا فقط اختلف الأمـر.. فأنا كنت أعطيك أكثر.

ولأول مرة يضحك عبدالغنى بصوت مرتفع وهو يردد :

– ألم نتفق على أن ننسى الماضى .. يا هشام بك حـاول أن تستريح اليوم جيداً فغدا أمامنا سهرة ظريفة أنت مدعو إليها، سيحضرها أكبر رجال الأعمال مـن الإسـكندرية وبورسـعيد والسويس .

حاول أن يتكلم .. ولكن عبدالغنى يقاطعه مسترسلاً :

– يجب أن نتحرك.. الشمـس بـدأت تسـطع وأنـا مرهق.. و..

نظر إليه متخابثا .. ثم قال :

– ولا تحاول أن تهتم بى كثيراً أو تراقبنى كمـا فعلـت بالأمس.. فأنت لديك مهام أصعب من هذا بكثـير.. الفرصـة مواتية لك غداً، حاول أن تستغلها .

و.. تحركت السيارة .

كانت الساعات تمر ببطء شديد، وهو راقد فوق فراشه متيقظاً دون إرادة، أنتابه إحساس بأن مشاعره كلها بدأت تتسلل من تحت جلده من خلال مسامه، تبحث عن بديل لجسده لتشعر بالأمان فى دنيا المجهول.. ونبضاته تناقص فى تتابع مع أنفاسه الحائرة باحثة عن قلوب نضرة لم يمسها اليأس لكى تتعايش معها وبها.. شئ واحد لم يرحل عن جسده المدد الذى بدا وكأنه ممر مهجور انطفأت من حوله المصابيح وماتت فوقه الحياة.. كان عقله هو الذى أبى أن يرحل، ليس حبا ولا انتماء ولكن كأنه يتعمد إذلاله وليذكره دائما بأنه أصبح كياناً بلا ظلال .

تحرك بصعوبة تجاه رنين التليفون.. سمع صوت عبدالغنى وهو يذكره بموعد الليلة ولم ينس أن يلفت نظره بأن يكون على أكبر مستوى من الأناقة، كأحد أهم متطلبات العمل الليلى .

وما كاد ينتهى من ارتداء ملابسه حتى انتبه على صوت جرس الباب وهنا فوجئ بعبدالغنى تحيط به ثلاث فتيات لم يصعب عليه تحديد هويتهن منذ الوهلة الأولى، حيث كن على درجة كبيرة من الميوعة والتبهرج بالرغم من صغر أعمارهن.. ولكن كفاءة عبدالغنى تطغى دائما فى مثل تلك الأمور .

حاول أن يفسح لهن الطريق إلى الداخل، ولكن عبدالغنى

تصلب فى مكانه متمنعاً، ثم أشار بكلتا يديه نحو الفتيات قـــائلا بفتور غير مصطنع :

- عليك باختيار إحداهن لتصبح رفيقة سهرتك الليلة .

وقبل أن يفيق من ذهوله، فوجئ بهن جميعاً يلتفن حولـــه فى صيحة مشتركة كل منهن تتسابق لتصبح هى المختـــارة .. مما دفع بالرجل أن يتدخل ويسير إلى إحداهن بنظرة خبيرة قائلا بلهجة آمرة :

- انتهينا.. أنت يا سونيا سترافقينه ..

ثم التفت إلى الأخريات مستطرداً :

- هيا.. عليكما بالانصراف.. سيأتى الدور عليكما قريباً.

انصرفت الفتاتان.. بينما ظل هشام محمود واقفاً فى مكانه دون حراك.. وهو يتابع ما يدور حوله باندهاش شديد جعله فـــى صورة الأبله ثم فوجئ بعبدالغنى يواصل تلعيماته.. متوجها لـــه هذه المرة باقتضاب :

- هيا .. علينا أن نتحرك الآن .. فلقد اقـــترب موعـــد اللقاء .

وفى الطريق نظر فى مرآة السيارة التى أمامــــه ليلتقـــط صورة سونيا ثم قال :

- بالنسبة إليك فأنت تعلمين ما هى مهمتك .. و..

التفت تجاه هشام الجالس بجواره وهو لا يزال تحت تأثير الدهشة، وهمس عليه بتأدب وحذر :

– يا هشام بك .. يبدو أن الحظ حليفك تمامـــاً.. أود أن أعرفك بأن من ضمن مجموعة اليوم سيحضر "متولى بك" وهـو أكبر منافس لسليمان .. ومن حسن طالعك أن الرجل بالرغم من أنه داهية فى إدارة إعماله إلا أنه مريض بمرض ظريف جدا .

حاول أن تكون ضحكته طبيعية قبل أن يكمل حواره :

– إنه ضعيف جدا أمام النساء .. ويشعر بالزهو والنشوة كلما استطاع أن يقتنص فريسته من الآخرين .

قال هشام والمرارة فى حلقه :

– وما دخل هذا فى موضوعنا ؟

– لا تشغل بالك .. فتلك مهمة سونيا .. عليك أنـــت أن تشعره بأن محاولاته تدور من خلفك.. لكى يشعر بالانتصـــار.. وكذلك ..

ولكن هشام يقاطعه بشئ من الحدة :

– لم نتفق على هذا يا عبدالغنى .

– يا صديقى العزيز.. هذا هو المدخل الوحيد الذى تســتطيع به أن تضمن مصادقته.. ثم .. أنت تعرف الباقى.. هذا إذا كنت حقـا ترغب فى استرداد أموالك واستعادة مكانتك مرة أخرى .

وقبل أن يجيبه بحرف واحد.. فوجئ بالفتاة مـــن خلفـــه تضع كفها فوق كتفه وهى تربت عليه قائلة بدلال :

– لا داعى للغيرة ياحبيبى.. ستظل أنت الحبيب الأفضل دائما .. و..

أطلقت ضحكة مائة جعلته يشعر بالرغبة فى أن يقتلـــها.. أو أن يتقيأ. ولكنه آثر الصمت.. فالدافع أقوى من إحساسه بآلام كرامته الذبيحة .

توقفت السيارة أمام المدخل الرئيسى للملهى الليلى.. وهبط عبدالغنى منها بسرعة لا تتناسب مع سنوات عمره ثم ســـبقهما بخطوة واحدة وهو ينحنى انحناءة طفيفة بجدية واضحة .

– تفضل يا هشام بك .. تفضلى يا هانم .

وهو يرمقها بنظرة ذات معنى.. أدرك من خلالها هشـــام بأن الآخر يريد أن يلفت نظره أن ساعة العمل قد حانت .وفـــى الداخل شعر هشام بأن كل العيون قد تحولت إليهم.. لم يدهـش.. فهو برفقة فتاة مثيرة إلى أقصى حدود الإثارة، شـــعرها يكـــاد يقترب من لون الدماء، ورداؤها يلتف حول جسدها بقوة. كمـــا أنها تخصه بنظرتها أو بابتسامتها المدللة .

وتغير الأمر تماما بالنسبة لسهرة الأمس .. حيث تســـابق الجالسون حول مائدة المليونير من أجل نيلهم شـــرف جلوســـه بجوارهم .

فما كاد عبدالغنى يقدمه للحاضرين حتى تعالت الصيحـات بالترحيب والتقدير .. لحظة ذكرته بماضيه القريب عندما كـان الجميع يتهافتون عليه.. ولكنها لحظة مختلفة الآن تماما .

وبدأ المليونير المتصابى يمارس هوايتـه فـى اصطيـاد فريسته التى تظاهرت بالبراءة والوفاء، بينما انشغل هشام عـن محاولات الرجل بغير عمد، حيث جذبت انتباهه الملايين التـى تتناقل فوق الشفاه فى صورة أفكار ورغبات للقيام بالعديد مـن المشروعات .

وبدأت الهمسات تـدور، والكـؤوس تزلـزل الـرؤوس والمصابيح المتعددة الألوان تشرق برهة وتخبو فى الأخرى .

والموسيقى تصارع الجدران لتخترقها من شدة ضجيجـها، وتصور صائد النساء المغرور بأنه قد حقق المعجزات، عندمـا وافقته سونيا على مراقصته، وبالتالى انسحب الجميع من حـول المائدة يتبعون سيد المكان ويحيطون به وكأنهم حرس خاص .

بينما وجد هشام نفسه وحيدا فى جلسته، تلفت فى أكثر من اتجاه عساه يجد عبدالغنى الذى ذاب وسط الظلام فجأة، وكـأن مهمته قد انتهت عند هذا الحد .

شعر بالاختناق يطبق على صدره، والكـؤوس المتعـددة التى ارتشفها بدأت تفقده شيئا من تماسكه، فقرر الرحيل حتـى لايلفت نظر الآخرين لحالته.. وما كاد يقف حتى أسرعت سونيا

تجاهه وكأنها تخشى غضبه، وتبعها الفارس الولهان الذى ما إن اقترب حتى بادره بابتسامه سكرى قائلا :

- نحن مازلنا فى أول الليل يا هشام بك .

حاول هشام أن يبادله التلطف، ولكنه فشل.. ونظر تجـــاه سونيا قائلا بلا انفعال :

- يمكنك الانتظار . وعليك أن تلحقى بى فى المنزل .

وكأنها صفقة غالية قد سقطت فجأة بين يدى متولى بـــك، الذى سارع بتقديم الكارت الخاص به لهشام قائلا بإصرار :

- إذن .. سنلتقى غدا صباحا فى مكتبى .. فلدى الكثـــير من المشاريع التى أتمنى أن تشاركنى بخبرتك فيها .

أومأ برأسه مستسلما.. ثم استدار منصرفا خارج المكان .

وعند الباب الخارجى لفت نظره عـــــدم وجـــود ســـيارة عبدالغنى.. وبالرغم من صعوبة إيجاد مواصلة تنقله إلى منزلـــه فى هذا الوقت المتأخر من الليل، إلا أنه شعر بالارتيـــاح لعـــدم رؤية عبدالغنى.. فأحاط عنقه بياقة البالطو الذى يرتديـــه، ودس يديه فى جيوبه، وراح يستقبل النسمات الباردة على وجهة فـــى نشوة محاولا التخلص من الأنفاس اللزجة التـــى تســـللت إلـــى صدره وهو فى الداخل .

كان الطريق شبه خال تماما من الناس.. راودته رغبة لكى يصفر بصوت مسموع لعله يقصر المسافة التى سيقطعها للطريق الرئيسى.. ولكنه توقف فجأة مضطرا عندما شعر بأن، هناك شيئا ما يتبعه، واستجمع حواسه فى أذنيه وهو يحاول الخطى مرة ثانية، وفى هذه المرة لم يستطع مقاومة رغبته فى الالتفات ليستكشف ما يدور وراءه .

وما كاد يفعل حتى أفلتت منه ابتسامة.. وهو يقول :

– أهذا أنت !! ؟

كان تساؤله هذا لكلب ضال، يبدو أنه أراد أن يستأنس به فسار خلفه يتبعه فى خطواته.. ولكن الأمر تكرر ثانية من الكلب مما دفع هشام لأن يتوقف فى مواجهته محاولا إقصاءه بعيدا عنه.. بينما تسمر الكلب فى جرأة أمامه ورفع رأسه نحوه وهو ينظر إليه بعينين فيهما ومضة مشعة فى الظلام ..

وجمعتهما لحظة فى نظرة مشتركة أخرج بعدها هشام ورقة نقدية من جيبه وألقى بها إلى الكلب، الذى لم يعرها اهتمامه وظل ساكنا أمامه دون حراك .

وعند هذا الحد كانت الخمر قد تمكنت تماما من رأس هشام الذى تخيل بأن هذا الحيوان قد يفهمه وهو يردد عليه عدة كلمات قبل مواصلة سيرة قائلا :

– مسكين أيها الكب .. أنت جائع وتريد الطعام .. وأنا معى المال .. فلا أنت حصلت على الطعام ولا أنا استطعت أن أحضره لك بأموالى .

ثم عاود السير هذه المرة دون أ، يلتفت إلى الوراء. لأنه فى هذه الآونة هاجمته أحاسيس متشابكة وخواطر مضطربة أخذت تتساقط إلى أعماقه كأوراق الخريف.. وراح يحدث نفسه فى صمت .

يا إلهى .. ماذا فعلت بى الدنيا .. وماذا فعلت أنا بنفسى؟.. ذلك الحيوان الأليف جعلنى أشعر بضآلة قدرى وتفاهة وجودى . ماذا فعلت بنفسك يا هشام .. حققت النجاح والمال فذبحك الآخرون .. وعندما أردت استعادة مكانتك ذبحت نفسك، ماذا أفعل ياربى؟ أشعر وكأنى أعيش على هامش الحياة، حتى قلبى أخضعته لظروفى التعيسة وكأنه لاحق لى أن أختار.. وكيف أختار وأنا لا أملك حق نفسى .

مرارة الذل لا تبارح حلقى .. أخشى أن أفقد مقاومتى لمشاعر الحقد التى بدأت تتسلل إلى صدرى.. ليتنى أستطيع أن أمزق شباك الشر أو أدمر طريق الخطايا .. أو أقتل عبدالغنى .. أو..

– تاكسى ..

أنحشر داخل السيارة الأجرة غائصا فى معطفه وهو شارد الفكر.. وبدا السائق يعرف نوعية زبائنه فى هذا الوقت المتـأخر من الليل.. فهمس إليه قائلا :

– هل قررت إلى أين ستذهب يا بك ؟

– مصر الجديدة يا أسطى .

وهناك فوجئ بسيارة عبدالغنى تقــف أمــام الفيــلا.. واشتدت دهشته عندما لاحظ انتظار عبدالغنى بداخلها.. واقترب منه بعدما صرف السيارة الأجرة ثم أطل برأسه داخــل نــافذة السيارة حيث كان الآخر مغمض العينين وكأنه فى نعاس عميـق ، وما كاد ينطق بحرف واحد حتى لاحقه عبدالغنى قائلا بتهكم :

– أين كنت يا فارس الليل .

استعاد هشام نفسه من أثر مباغته عبدالغنى .. ثم أجاب:

– كدت أسألك نفس السؤال.. لم أجــدك عنــد البوابــة وأضررت للسير على قدمى فترة طويلة.. و ..

قاطعه وهو يدير محرك السيارة قائلا :

– أردت الاطمئنان عليك فقط .. وأذكرك بموعد متولــى بك غدا .

حاول أن تكون ظريفا معه .. هؤلاء القوم يعشقون النفاق.

- أنت تعلم أنى لا أجيده .

ابتسم ابتسامه باهته وهو يتحرك بالسيارة.. وتركه واقفا دون أن يقول كلمة واحدة .

بينما استدار هشام إلى داخل فيلته، ثم ألقى بنفسه فوق الفراش مستسلما للإرهاق وهو يزحف فوق كيانه كله .

***

الساعة العاشرة صباحا ..

طرقات عنيفة تتوالى على باب الفيلا.. اتجه هشام نحو الباب بخطوات مترنحة وقد امتزجت أنفاسه بتثاؤبه .

فوجئ بسونيا تقتحم الردهة دون استئذان، ثم التفتت نحوه قائلة :

- أما زلت نائما .. يبدو أنك نسيت موعد متولى بك .. هيا أسرع أمامنا عمل هام .

توقف برهة أمامها يتفحصها، وقد لاحظ الإرهاق يحيط بعينيها بالرغم من أنها كانت تبدو فى أبهى صورة.. ثم أجاب :

- لم أنس .. ولكنى لم أتوقع حضورك مبكرا .. أقصد ..

ضحكت بصعوبة وهى تقول :

– آه لو تعلم كيف أمضيت ليلتى أمس.. عينى لم تر النوم حتى هذه اللحظة .

قال وهو يجلس أمامها :

– إذن .. لا داعى للذهاب إلى المدعو متولى هذا .. و..

اكتأبت فجأة قبل أن تهمس بمرارة :

– وهل تعطينى أنت باقى أتعابى .

– إلى هذه الدرجة يتحكم المال فى الإنسان .

– وأكثر .. ثم ..

أرسلت نظرتها فى اتجاهه وأردفت بلا تحفظ :

– ألا تعانى من نفس المشكلة ؟

سارع بالوقوف وهو يقول بغضب :

– ماذا تقصدين ؟

لحقت به وهى أكثر اتزانا منه :

– لا داعى للغضب .. يجب أن تواجه الحقيقة إذا كنت ترغب فعلا فى حل مشاكلك .. أو أطماعك.

صاح فى ثورة مكبوتة :

– أنا لا أسمح لك بمحادثتى بهذه الطريقة .. و ..

أوقفته بفتور قائلة :

– أهدأ.. أترك الحماس جانبا.. واعلـــم أن المبـــادئ لا تنبت إلا فوق الأرض الصلبة .. واعتقد أن الأرض تحت قدميك تكاد تكون هشة .

أحست بالرهبة وهو يقترب منها متحفزا .

– لم أكن أتصور أن عبدالغنى يملك كل هذا التأثير علـــى الآخرين .

فى هذه المرة كانت صادقة فى ضحكتها المجلجلة .. ثـــم قالت باندهاش :

– ماذا قلت ؟ .. عبدالغنى .. أو ..

ثم واصلت ضحكتها .. وأردفت :

– إنه مجرد تابع صغير للـــرأس الكبـــير.. إنـــه ينقـــل التعليمات فقط .. إنه مسكين مثلنا، لا حول ولا قوة لديه .. هيـــا .. هيا لكى نلحق بالموعد .

قال هامسا :

– إذن .. لحساب من تعملين أنت وما مصلحتك ؟

أجابت وهى تحتفظ ببقايا ابتسامة :

– أجاد أنت .. أحقا لا تعرف لحساب من أعمل أنـــا .. وتعمل أنت .. وكذلك عبدالغنى .

نفى بإشارة برأسه مستكينا فى تخاذل .. ثم قال :

– صدقينى .. لا أعرف .. ثم أنا لا أعمل تابعا لأحد .

– إذن .. لا داعى لأن تعرف .. هيا .. هيا لكى نلحــق بالموعد .

– لن أذهب معك قبل أن أعرف .

قلبت شفتيها بلا مبالاة قبل أن تقول :

– أنت حر .. فى كلتا الحـــالتين أنـــا أديــت مـــهمتى وسأحصل على باقى أتعابى .

وما كادت تهم بالانصراف، حتى اندفع نحوها متلطفا :

– أرجوك .. لا تـــتركينى فـــى حـــيرتى .. أخـــبرينى وسأعدك بأننى لن أبوح بالسر لأحد ..

أطالت النظرة إليه، ثم تراجعت نحو مكانها الأول وقـــالت وهى تجلس :

– أشعر برغبة فى مساعدتك.. حتى لـــو كلفنـــى هـــذا خسارتى ماديا .

تبعها وهو يقول مستعطفا .

- لن تندمى .

- سليمان بك .

أفلتت من بين شفتيه صيحة مدوية :

- من .. ؟

أجابت وهى لا تزال ترمقه بشفقة :

- سليمان بك .. إنه أقوى من أن تواجهه .. عليـــك أن تستفيد من موقعك بقدر الإمكان .. ثم ارحل إن شئت بعد ذلك .

استدار وكأنه يحدث نفسه :

- مستحيل .. مستحيل .

ثم التفت نحوها قائلا فى توسل وكأنه تذكر شيئا فجأة :

- هل تعرفين رجاء مصطفى ؟

نهضت فى توتر، ثم قالت وهى تتأهب للانصراف :

- أعرفها بالطبع .

لاحقها بإصرار :

- ماذا تعرفين عنها ؟

تجاوزته وهى فى طريقها إلى الخارج وقالت :

- الكثير .. والكثير ..

أسرع يلحق بها .. وأمسك بيدها برفق وهو يقول :

- أرجوك .. لا تخفى شيئا .

استعادت شخصيتها وهى تجيبه :

- ستذهب معى .. أو أنصرف ؟

- من فضلك .. أرجوك .

كررت مرة أخرى :

- ستذهب معى .. أو أنصرف ؟

اقتربت اللحظات من الدقيقة وهو ساكن تمامـــا أمامـــها، ينظر إلى عينيها فى صمت يكاد ينطق بالأسى والتحدى.. ثم قال بنبرة هادئة :

- انتظرينى من فضلك .. سأبدل ملابسى وأذهب معـــك إلى متولى بك ..

انفرجت شفتاها عن ابتسامة ساخرة قبل أن تقول :

- أراك تدربت كثيرا .

رمقها بنظرة فاترة دون أن يحدثها وتوراى داخل غرفته.

قطعا أكثر من نصف الطريق، وهو يقود سيارته صامتـــا دون أن يقول كلمة واحدة، بينما سونيا تثرثر فى موضوعـــات

شتى، بعيدة تماما عما يدور فى خلده من صراعـــات وأفكـــار مشتتة .

ولم تجد مفرا من أن تستميله للحديث معها ففاجأته قائلة :

– يبدو أنك غاضب منى يا هشام بك .

أجاب بصدق :

– أنا لست غاضبا .. ولكنى حائر .

ضحكت بميوعة وهى تقول :

– أنت جذاب .. ومن الصعب مقاومتك ..ولذلك سأخبرك بكل ما تريده على شرط أن، تحتفظ بالسر بيننا .

ابتهجت أساريره وهو يلاحقها قائلا :

– أعدك بهذا .. أخبرينى أولا ماذا تعرفين عـــن رجـــاء مصطفى .

– إنسانة مليئة بالتناقضات الغريبـــة .. فـــى تصرفاتـــها ومشاعرها وأفكارها.. من الصعب معرفة ما يدور فى خلدها .. ويكفى أنها امرأة .

– أنت تدورين حول الإجابة .

– على كل حال دعها لنهاية استفساراتك .

أطلق زفرة طويلة قبل أن يقول :

- ما هى مصلحة سليمان بك ..لاختيارى ؟

أجابت بدهشة :

- وما دخل سليمان بك .. هو لا يعرف أنك تقوم بـهذه المهمة.. وأعتقد أنه تصرف شخصى من عبدالغنى .. ربما يريد مجاملتك أو ..

تفحصته بنظرة شاملة .. ثم أردفت :

- أو أنه يرى فيك أنك ستكون أفيد له مستقبلا .

- وما مصلحتك أنت ؟

قهقهت بصوت مرتفع وهى تكشف عن ساقيها بفجور.. ثم قالت :

- فاعلة خير .

أحس بالتضاؤل يقوض رجولته وهو فى طريقه إلى مكتب متولى بك، بينما سبقته سونيا بخطوة وهى تدخل إلى بهو الشركة، وما أن أبلغت السكرتيرة بحضورهما حتى ظهر متولى بك من داخل مكتبه تسبقه كلمات الترحيب والتقدير، وخاصة لهشام الذى لم تسعفه أعصابه للاتزان والتماسك، فراحت ابتسامته المضطربة تظهر فوق شفتيه سرعان ما تذوب عدة مرات دون أن يدرى .

كان لقاء مريرا.. كل من الثلاثة يعرف حقيقة الآخـــر.. متولى بك يبث سماجته بأسلوب وقح مستفز، بينما سونيا تمارس مهمتها بخبرة عالية .. أما هشام فقد بدا وكأنه اكتشف فى هـــذه اللحظة فقط طبيعة عمله وموقفه.. وبدأت ملامح الحزن تتســـلل إلى وجهه إلا أن متولى بك بادره قائلا :

– يا هشام بك .. أنا رجل واضح فى كل تعـــاملاتى .. أحب الربح لنفسى كما أحبه للآخرين.. كما أننى أقـــدر الذكـــاء تماما ..و..

التفت تجاه سونيا وأردف :

– وأحب الإنسان الذى يفهم حقيقة الدنيا أيضا .

– أنا مجرد تلميذه أمام خبرة وتجارب هشام بك.. إنه من خيرة رجال الأعمال فى مصر .

لم يعلق متولى بك على كلامها، واقترب من هشام هامسا:

– سامحه الله .. سليمان بك.. استطاع بدهائه أن يورطـك بالرغم من أن معلوماتى عنك أنك من أكفأ رجال الأعمال .

ارتسمت ابتسامة هزيلة فوق شفتى هشام .. ثم قال :

– أشكرك على مجاملتك الرقيقة .. وعلـــى كـل حـــال التجارة خاضعة لكل الاحتمالات .

- أجل التجارة هكذا.. ولكن هى أيضا فى حاجـــة إلـــى الحذر.. بل المزيد من الحذر .

ثم .. أشار إليهما بالجلوس وهو يجلس أمامهما .. ثم نظر إلى سونيا قائلا بجدية :

- أعتقد نتحدث أولا فى العمل الجاد .. وسأكون واضحـا معكما.. فى الحقيقة أنا وسليمان بك تقف أمام نقطـــة تحـول خطيرة بالنسبة لوضع الشركات التى نملكـها، فـهناك فرصـة ممتازة للحصول على عطاء ضخم يمكننى أن أستريح بعده مـن عناء البحث عن أعمال جديدة.. ولا أخفى عنكما أننى اسـتطعت بعلاقاتى المتعددة والجيدة أن أتخلص من أغلـب المتقدميـن.. وطبيعى أن هذا الأمر كلفنى الكثير فى سبيل ذلك .. ولكنى .

أشعل سيجارته بحماس .. ثم استطرد وهو لا يزال يركز نظرته تجاه سونيا :

- ولكن .. للأسف أن سليمان هو الشخص الوحيد الـذى قرر مواجهتى ومنافستى ليأخذ العطاء لصالح شركته ..و..

والتفت إلى هشام مسترسلا :

- أقصد شركتك السابقة .. المهم أنا لست مستعدا للتنازل عن هذا العطاء مهما كلفنى الأمر.. ولذلك قررت أن أدخل معـه هذه المعركة .. و ..

قاطعته سونيا قائلة :

– المطلوب بالتحديد يا متولى بك ؟

أجاب بلا تردد :

– أن أعرف الأسعار التى تقدم بها .

قالت بلا مبالاة :

– والمقابل .

ضغط على أحرف كلماته وهو يقول :

– مائة ألف جنيه .

تسللت بنظرتها تجاه هشام قبل أن تجيب قائلة :

– مائة وخمسون وألف جنيه .

أطلق متولى بك ضحكة مزعجة وهو يقول :

– دعى الخمسين ألفا الفرق.. فقد يمكننى أن أستغلها لأمور أخرى .

ثم دقق النظر فى عينها، كأنه يخبرها برسالة شفهية بأنه قرر أن يكون الفرق لصالحها كصفقة جانبية، بينما تلقت سونيا هذه التلميحات بارتياح كبير، وسارعت على أثرها قائلة :

– على كل حال لن نختلف يا متولى بـــك .. المـــهم أن تمهلنا أسبوعين وسوف لاتندم على ذلك .

حاول هشام أن يقول شيئا ، إلا أنها نهضت فجأة متأهبـــة للانصراف .

فاضطر بدوره أن يقف ويتخذ طريقه لمغادرة المكـــان.. وفى هذه الأثناء لحق بها متولى يهمس إليها خلسة لتحديد موعـد المساء، مما دفع هشام لأن يتجـــاهل الموقــف ويســرع فـــى الإنصراف خارج المكتب، وتغير الموقف تماما فـــى الطريـــق أثناء قيادته للسيارة وهى بجانبه، حيث غابت فى رحلة طويلـــة مع الصمت بينما راح هو يثرثر على غير عادته وطبيعته .

فى النهاية لم يستطع أن يخفـــى توتـــره تجـــاه صمتـــها الغريب.. فبادرها بتلطف :

– فيم تفكرين يا سونيا ؟

– لا شئ .

وساد الصمت بينهما عدة دقائق بعد إجابتها المختصرة، ثم عاد مرة أخرى: يتساءل وهو يتململ :

– لكنى أراك شاردة الفكر ..و..

قالت بحذر :

– ألست معى أن الصفقة تحتاج لشرود الفكر ؟

وكأنه ابتهج لمنحه فرصة الحوار معها.. فسارع قائلا :

– ألا ترين أنت أن الصفقة لا تحتاج لكل هذا الشرود ؟

ابتسمت بدهاء وهى تقول :

– إذن اتفقنا ..

– على ماذا .

داعبت عنقه بأطراف أصابعها وهى تقول بارتياح :

– على أن الصفقة لا تعنيك كثيرا.. بقدر استرداد مكانتك.

– لا أفهمك يا سونيا .

– سأكون صريحة معك .. أنت تعلم مدى المجهود الذى سوف أبذله فى سبيل تحقيق غرض متولى بك .

– وهل يمكننى معرفة الوسيلة التى ستتبعينها .

رمقته بنظرة خاطفة قبل أن تجيب :

– أعرف أنك أذكى من أن تسأل مثل هذا السؤال.. ومع هذا سأكون معك واضحة.. سيكون لكل منا طريق.. أنت إلى رأس البر وأنا أترك لى عبدالغنى .

– وما الذى جعلك تتأكدين من قدرتى على إقناع رجاء مصطفى ؟

قالت بلا تردد :

– لأنى واثقة من قدرتى على إقناع عبدالغنى .. ولكـــن المهم ألا تخبرها بقيمة المبلغ على حقيقته .. و ..

ضحكت بصوت مرتفع .. ثم أردفت قائلة :

– على الأقل لكى يبقى لك شئ.

أدرك هشام أنها تسعى بجدية للاستحواذ على القدر الأكبر من المبلغ، وما كاد يلمح إليها بما يدور فى خلده.. حتى بادرتــه قائله :

– ليتــك تتوقــف فأنـــا أريــد الـــنزول هنـــــا .. و .. وبمجرد نزولها من السيارة، سارعت قائلة :

– من هذه اللحظة سيبدأ عملنا.. ولا تنس أننـــى أمنحــك فرصة لن تعوضها .

وتركته وهى تسرع من خطواتها بعيدا عـــن الســيارة .. بينما سكن هشام قليلا قبل أن يتحرك بسيارته من جديد، وهـــو مندهش تماما لدقة ملاحظتها لما كان يدور فى عقله .

***

(٥)

بدا قرص الشمس شديد الاقتراب والاحتراق ..

شعر هشام بأشعتها تسلل إلى صدره وهو فى طريقه إلـى رأس البر وكأنها رصدته هو بالذات لتمزق ضباب الحيرة الـذى افترش صدره، وتكشف عن أكثر من حقيقة انزوت فى الأعماق مع توالى الأحداث .

استطاعت صفقة سونيا أن، تنسيه حقيقة موقفه، وأن تنشله من دوامة القلق عن طبيعة العلاقة التى تربط رجاء مصطفـى بسليمان بك .

وكأنه آثر أن يستسلم لشخصيتها الغريبة الغامضة علـى أن، يفقدها تماماً.

فهو يدرك أنه وقع تحت سيطرة سلطان الحب ولم يعـد قادراً على اتخاذ قرار يثور من خلاله على طبيعـة تصرفاتـها المتقلبة.. وبدأت أفكاره تتخذ مساراً جديداً متوائما تمامـاً مـع ظروفه الحالية، ومع علمه بأنه لن يستطيع التصـدى لواقعـة الكئيب من خلال مبادئ منهكة القوى وقيم عارية الظهر وأخلاق تتأهب للرحيل فى أى لحظة .

ولهذا اختار أقصر الطرق لمواجهتـــها بمـــا لديـــه مـــن معلومات جديدة بمجرد أن رآها ، ثم قال :

– هاأنذا فى انتظار مبرراتك الجديدة كالعادة .

بدت مختلفة عن طبيعتها وهى تقول:

– هشام .. لقد فكرت فى الأمر فى أثناء غيابك.. وأنـــا أشعر بالاقتناع بفكرتك، واستطعت أن أطرد مشاعر الحقد مـــن صـــدرى تجـــاه أى إنســـان..وليتك تنفذ مـــا وعدتنـــى بـــه.. ونرحل معاً.

قـــاوم إحساسه بالإحباط قبل أن يبادرها :

– فات الأوان يا رجـــاء .. أريحينى وأخبرينى بحقيقـــة وطبيعة عملك بصدق ..

– هذا قرارك الأخير ؟

أجاب بلا تردد :

– نعم .. لأنى أحبك أكثر .

تناولت يده كأنها تعاهده.. ثم قالت:

– البداية من هنا فى الفندق.. فأنا حلقة الاتصـــال بيـــن سليمان بك وبين المسئولين عن العطاءات .. و..

قاطعها بحماس متسائلا :

- ونسبة النجاح ..؟

- كنت أظنك ستسألنى عن المقابل الذى أقدمه لهم .

أخفى ارتباكه وهو يسترسل :

- أنا أثق فيك.. ولكن يهمنى أن أعرف نسبة النجاح .

أجابت بثقة يشوبها الغضب :

- مائة فى المائة .

- ابتهجت أساريره، وزاغت نظرته وكأنه يتطلع للمستقبل القريب، ثم قال :

- إذن .. لنبدأ العمل بجدية وحذر.

ماذا تقصد يا هشام ؟

استدار وكأنه يتأهب للأنصراف.. وغاب مع لحظات فكر صامته، ثم عاد إلى موقعه الأول وبادرها :

- مادام الأمر فـــى يــدك.. فلمـــاذا لا تكـــون الصفقـــة بأكملها لصالحنـــا .

- أنت تغيرت كثيرا يا هشام ..

لاحقها قائلا :

– بل قولى أنى أدركت كيف تسير الأمور .

ابتسمت بخيبة أمل وهمست :

– ثم بعد ؟

مهمتك أن، تعلمى الأسعار الحقيقية.. ومهمتى أن أنقلـــها إلى متولى بك.. ثم نقبض المبلغ بالكامل.. مائة وخمسين ألـــف جنيه.. وفى هذه الحالة نكون قد ضربنا فى الـــهدف الصحيـــح وحققنا الأمرين .. سنحصل على المبلغ كبداية طيبة لحياتنـــا.. ونكسر سليمان بك كما كسرنى وكسرك أنت .

ضحكت بخبث قبل أن تتساءل :

– و .. سونيا ؟

أجاب بفتور :

– يكفيها نصف الأتعاب التى أخذتها.

– وعبدالغنى ؟

– قال بمرارة :

– يكفيه ما أخذه منى طوال السنوات الماضية .

- وسليمان بك ؟

أجاب بلا تردد :

- يكفيه أنه تسبب فيما وصلت إليه الآن .

- من أى جانب ؟

لازمه الاكتئاب وهو يقول :

- من كـــل الجوانــب .. أنــت قــد تعلميــن الجــانب المادى.. ولكن لاتعرفيــن كيــف أصبحــت مشــاعرى تجــاه نفسى وتجاه الاخريــن .

- قالت بصدق وبراءة :

- ليتك تصفح عن الماضى وأحداثـــه.. كمـــا جعلتنـــى أتخلص من عقدة الاضطهاد التى لازمتنى سنوات طويلة .

أجاب وهو يضحك بسخرية وبمرارة .

- حتى لو حاولت أن، اصفح.. المجتمع حتماً سـيرفض.. يارجاء المجتمع أسهم بقدر كبير فى الحالة التى وصلت إليـــها اليوم، نفس المجتمع الذى رفض مبادئى وأخلاقـــى واعــتزازى بالقيم، وكان المقابل كما ترين.. لا عطاء بلا مقـــابل.. عندمـــا فعلت هذا وجدته يفتح ذراعيه مرحباً مستبشراً بعضو جديد تماماً

مع الآخرين، ومنحنى فرصـــة الحصول على مائة وخمســـين الف جنيه دون إرهاق ومشقة .. و..

تردد برهة قبل أن يسترسل :

– أنت نفسك أنسيت ماذا فعل بك المجتمع ؟ .. ألم تقدمى المقابل لكى تصل إلى هذا المستوى ؟ .. ألم تطوى كبريـــاءك ومشاعرك بين ثنايا الصبر الأليم.. واستسلمت خاضعة بلا إرادة وبلا رغبة.. وأنت تدركين أيضا بماذا ضحيت فى سبيل ذلـك.. أخبرينى إذن كيف سأواجه هذا المجتمع دون أن أصبح واحــدا منه .. وكيف..؟

قاطعته وهى تقترب من صدره :

– الحب .. الحب يمكنه أن ينقذنـــا مـــن هــذا الســوء قال بتــهكم :

– الحب وحده .. لايكفى .. أتذكرين .. ألم تكونـــى أول المؤيدين لهذه المقولة .. لقد آمنت بكلماتك فكيـــف تطـــالبيننى بالتراجع الآن ؟

قالت وهى منكسرة :

– دعنا نحاول ..

- يا رجاء صدقينى .. الحب بلا قوة ومال هـــو أقصـــر طريق للخيانة والغدر .. والعذاب .

حاولت أن تحجب عنه دمعتها قبل أن، تقول:

- أنا رهن إشارتك .

أطال نظرته إلى عينيها.. ثم قال :

- هل تعاهديننى على الوفاء ؟

أجابت بلا تردد :

- أنا لا أملك غير هذا ..

وقبل أن يتفوه بحرف واحد،تركته مسرعة إلى الداخل فى اللحظة التى فقدت فيها القدرة على التماسك، ولـــم تســـتطع أن توقف تتابع قطرات الدمع التى انهمرت فجأة من بين جفنيها .

بينما استدار هو متخذا الطريق الآخر دون أن يلحظ مـــا تعانيه هى، أو تعمد ألا ينتبه إلى ذلك .

وبدأت الليالى تلقى فوق عاتق الزمن أحداثها.. واشـــتعل بريق الحظ أمام خطواتهما، حيث تتـــابعت الصفقـــات الســـرية وكذلك المعلنة بنجاح غير متوقع، ولم يفسده غير خيبة آمالـــها بالنسبة لرد فعل سليمان بك بعد خسارته للصفقة وضياع العطاء

من بين يديه، حيث بدا أقوى مما توقعا، ولم تســقطه الضربــة بقدر ما أشعلت فى صدره نيران الحقد والتحدى تجاههما . وكان طبيعياً أن تنتقل رجاء مصطفى مع هشام إلى مكان آخر لتبــدأ منه الانطلاق من جديد، ولكن لحسابهما هذه المرة، واستطاعت لما لها من علاقات متعددة أن، تستقطب أغلب رجال الأعمــال الذيــن يــدورون فــى فلــك هـــذه اللعبــة الوضيعــة. ومرة أخرى أضيئت مصابيح الشر لتكشف عن أسوأ مـــا فـــى الحقيقة من نفوس ممزقة غريبة حتى عن نفسها .. وعقول تائهة تسبح وسط الأفكار المسمومة، وقلوب تجمدت المشـــاعر فـــى شرايينها،وخطوات لا تسعى إلا للخطيئة .. و.. كلمـــا تعـــددت الصفقات وازدادت الأرصدة بدت العلاقة أكثر وضوحـــاً بيـــن رجاء وهشام .. إلى أن ارتفعت فجأة زغاريد الشيطان فى لحظة مواجهة بينهما عندما اقتربت منه وهى فى صورة مكبوتة قائلة:

– إلى متى سنظل هكذا ؟ .. لقد أرهقتنى تلك الحيـــاة .. أريد أن أعيش حياة آمنة .. اريد أن ..

قاطعها بفتور :

– ما بالك يا رجاء ؟ .. أهدئى قليلا .. ثم ما هو الشـــئ الجديد الذى لم تعتاديه .

– ماذا تقصد يا هشام ؟

قال منتبهاً :

– لا شئ .. ولكن .. أليست تلك هى نفس الطريقة التـــى كنت تتبعينها مع سليمان بك .. و..

لا حقته وهى تكشف قليلاًعن ثورتها :

– سليمان بك كانت تربطنى به مصالح مشتركة .. أمـــا أنت فتربطنى بك مشاعر وأحاسيس صادقة .

داعب ذقنها بطرف أصبعه وهو يقول :

– لا تفــرق كثيرا يا حبيبتى .. كلـــها مصـــالح .. ثـــم ما سبب ثورتـــك ؟

نحن كدنا نقــترب مــن هدفنـــا.. قريبـــاً ســيمكننا أن نحقق آمالنـــا.

ارتفعت نبرة صوتها بلا إرادة وهى تقول :

– لا .. فأنا أشعر وكأنى فوق فوهة الانتحار .

وكأنه اكتشف أنها جادة.. حاول أن، يضمها إلى صـــدره قبل أن يبادرها :

– لاتقلقى يا عزيزتى .. عمليتان أو ثلاث على الأكثر .. ثم نبدأ حياتنا من جديد .

– أشعر أنى فقدت قدرتى على المقاومة .. كل المغريات أمامى .. أخشى أن أستجيب وأنت دائما بعيد عنى .. إن كنت فرطت فى جسدى وكبريائى مرة وكان جزائى تلك الحياة اللعينة.. فليس عندى الاستعداد للتفريط فى قلبى .

أفلتت من بين ذراعيه قبل أن يجيبها :

– وأنا ؟..

قالت بحسرة :

– أنت هناك.. بعيد جداً .. أنت أصبحت لا تعرف ماذا تريد بالضبط، نسيت نفسك .. ووعودك .. وكدت تنسانى أنا أيضا .

تقلصت أسارير وجهه .. ثم قال :

– ماذا تقصدين ؟.. هل هناك ..

قاطعته بحدة :

– أجل أجل هناك من يضغط على أعصابى ومشاعرى .. لكى أستجيب له .

صرخ بلا وعى :

– لا .. لن يحدث هذا .. أنت تعلمين أنى أحبك .. وأنت أيضا تحبيننى .. ولن أسمح لك أو لغيرك أن يأخذك منى .

اقتربت منه وهى تنظر إليه بتحد :

– إذن .. لماذا لا نتخذ قراراً معا و..

لاحقها بذكاء :

– نتزوج ..

– أجل .. نتزوج .

استدار موليا ظهره لها وهو يقول :

– الزواج الآن .. سيفسد أعمالنا .

– أوافق .. فى السر .

أجاب بحماس :

– وأنا لا أوافق أن يكون زواجنا سرا .. أنا أريد أن أفخر بك أمام كل الدنيا .. أريد أن أهبك سعادة الكون .. أريد أن .. صمت برهة قبل أن يسترسل :

– أريد أن أعرف من هو هذا الرجل .. الذى أوقعك فى شرك الكآبة والأحزان .. عليك بالتخلص منه فوراً .

رفعت عينيها إليه بذهـــول :

– هذا فقط ما يهمك .. على كل حال هو رمزى بك ..و..

التفت نحوها فجأة كالمذعور :

– من .. رمزى صاحب شركات الا ستثمار .

– هو ذلك .

طفرت ابتسامة ماكرة فوق شفتيه.. ثم قال :

– لا.. لا.. أرجوك يا رجاء .. هـــذه عمليـــة كبـــيرة لا تتركيها من فضلك .. إنها تســـاوى عنـــدى أكـــثر مـــن مائـــة ألف جنيه .. وقد تكون بـــالدولار .. حـــاولى أن تتماســـكى .. رمزى من أكبر رجال الأعمال فـــى مصـــر .. أرجـــوك مـــن أجل حبنا .. حبنا أنا وأنـــت .

مالت برأسها فوق صدرها فى انكسار ذليل وهى تقول :

– سأتمالك يا هشام بك .. من أجل حبنا ..و.. من أجلـــك أنت أيضا .

وتركته كالعادة منصرفة .. وهو يتابعها بعينين جـــامدتين بلا حياة فيهما .

ومنذ تلك اللحظة أدركت رجـــاء مصطفـــى أنـــها أمـــام شخصية جديدة تماما غير التى تعرفها .. شعرت بـــأن هشـــام محمود كأنما يحادثها من وراء صرح من الزجاج وبأن صوتـــه يأتيها بعد رحلة طويلة يقطعها داخل سراديب أعماقه المظلمة .

أصبحت ترى فى عينيه نظرات لم تعهدها منه حتى فـــى اللحظات القاسية التى مرت بهما .. نظرات جامدة وكأنها تطوى قدرة خارقة على الأختراق والنفاذ .

أما هو فلم يعد يرى فيها أكثر من أداة طيعة، واســـتجابة مطلوبة، أقصر طريق إلى المستقبل المشرق .. وإلـــى الحـــب والسعادة أيضاً .

وسقط حاجز الحذر فى تعاملاتهما معا، حيث لم تعد رجاء تجد أدنى حرج فى أن تنقل إليه صورة واضحة مما يدور ومـــا قد يدور بينها وبين أحد العملاء، فتأخذه النشوة تارة والغيرة تارة أخرى، ولكن فى النهاية النتيجة المرجوة مهما كانت مشـــاعره فى هذه اللحظة.. وكذلك هى باتت تتقبـــل منـــه الكثـــير مـــن التصرفات والتلميحات التى لم تعتد عليها منه فى السابق .

إلى أن أتت اللحظة التى كادت مـــن خلالـــها أن تتـــهار صروح الآمال والأحلام، وأن تنفجر فيها شرايين المودة والأمان

.. عندما عادت رجاء إلى الشقة فى نفس المساء لتفاجأ بوجـــود سونيا من ضمن المدعوات أو برفقة أحدهم .. ولم تنتظر برهــة بل سارعت بعصبية تهمس فى أذن هشام متساءله عـــن ســبب تواجد سونيا :

– كنت أظنك أذكى من هذا .

قالت وهى لا تزال فى غضبها :

– أفصح .. وإلا فسأفهم الأمر بطريقتى .

اتجه بنظرته إلى أقصى المكان .. ثم عاود قائلا :

– ألا تلاحظين وجود "متولى بك" ؟

– وما دخله فى هذا ؟

ارتفع صوته قليلا وهو يضحك :

– ألم أقل لك .. يبدو أننى خدعت فى ذكائك يا عزيزتى .

– أرجوك يا هشام .. لا تلعب بأعصابى التى كدت افقدها.

أحاط خصرها بذراعه .. ثم قال بحنان :

– ياحبيبتى .. لقد جاءت هذه المرأة مدفوعة من عبدالغنى .. أو من سليمان بك نفسه .. فهما يعلمان جيدا أن متولى بـــك

يأتى لزيارتنا، ويدركان مكانه هذا الرجل بالنسبة لى وللآخريــن أيضا .. واعتقد أنهما يخططان لشئ ما من أجل اســـتقطابه، أو من أجل القضاء علينا .. أنا وأنت يا حياتى .. فيا ترى ســتقبلين هذا المصير ؟

أجابت وهى شاردة

– أقبله فى حالة واحدة فقط .

– وما هو ؟

قالت بثقة :

– أن أكتشف خيانتك لى .

ضحك ملء رئتيه وهو يردد قبل أن ينسحب من أمامها :

– لن يحدث هذا يا عزيزتى .. لن يحدث هذا .

تركها بلا تمهيد واتجه مباشرة نحو سونيا، التـــى مـــا أن شعرت باقترابه منها حتى اندفعت نحوه بـــلا مبـــالاة لأحــد .. حاولت أن تعانقه عن عمد إلا أنه تراجع بخطوة إلـــى الـــوراء والاضطراب يعبث بمشاعره وكأنها لم تلحظ إرتباكه ..

– مستحيل .. هشام بك مرة أخرى فى طرسيقى .

حاول أن يبستم .. ولكنها بادرته بتهكم :

– أهكذا تكون معاملات رجال الأعمال ؟

– أهلا بك .. سونيا هانم .

وبفجور أطلقت ضحكة عالية .. قبل أن، تقول :

– ألا تزال تذكر أسمى أيضا .. هذا كثير يا هشام بك .

أجاب متماسكا :

– أتسمحين بمحادثتك على انفراد .

داعبت ربطة عنقه بطرف أصبعها وهى تهمس :

– هذا منتهى أملى يا معبود النساء .

سارت بجانبه وهو يقاوم إحساسه بالاضطراب، ثم جلسا بالقرب من نافذة الردهة حيث قال بهدوء :

– لماذا جئت وماذا يدور فى رأسك .

– رأسى أنا لا يدور فيه شئ .. أسألنى عن قلبى .. عن مشاعرى .. عن أشياء أخرى يفهمها رجل له تجارب كثيرة مثلك .

تلفت بنظرة فى كل اتجاه قبل أن يقول:

- مازلت أنتظر إجابتك .

قالت بلا مبالاة وهى تنثر العطر وراء أذنيها :

- أخشى أن تغضب .

- لن يحدث هذا .

- وأن حدث .. ؟

صمت برهة ثم قال :

- أعدك بذلك .

أجابت بهدوء :

- لا أصدقك

أطلق زفرة يائسة من صدره .. ثم قال :

- لاتحيرنى .. سأكون واضحا معك إذا أخبرتينى عن سبب مجيئك إلى هنا .. ثم .. ثم ألا ترين أن موضعك هنا غير مرغوب فيه .

وضعت ساقا فوق الأخرى .. وقالت بثقة :

- أنا لست متطفلة .. أنا هنا بناء على دعوة من صاحب الحفل والمكان ..و..

قاطعها بجفاء :

– أنا لم أدعك ..

ضحكت بصوت مرتفع .. ثم قالت :

– وهل أنت صاحب الحفل والمكان ؟

نهض مستقرا قائلا :

– أراك تراوغينني بلا جدوى .. أنت تضيعين وقتك .. ووقتي .

هممت دون أن تنظر إليه قائلة :

– مسكين

شعر برغبة شديدة فى أن يصفعها على وجهها .. ولكنه تراجع عندما رفعت رأسها إليه ثم أردفت قائلة :

– أشعر برغبة كبيرة لمعاونتك .. ولكنك دائما تسد الطريق أمامى .. أيمكنك أن، تجلس لحظة ؟

جلس دون تعليق أو تردد بينما استطردت هى بحماس :

– لماذا لاتثق بى .. ما الذى يجعلك تخشانى بالرغم من أننى لم أحاول خداعك يوما .. أنا كل ما أرجوه أن تمنحنى

الفرصة لمعاونتك .. أنت فى دوامة عميقة من الصعب التخلص منها إلا إذا وضعت ثقتك فى .

مضت لحظات صمت بينهما قبل أن يقطعه متسائلا :

– ماذا تقصدين ؟

أجابت بهدوء :

– أنت مخدوع .

وقبل أن ينطق بحرف واحد، فوجئ بها تنهض مسـرعة وقد علت ابتسامة عريضة فوق شفتيها مرددة بصوت مسـموع للجميع :

– أهلا .. أهلا سليمان بك ..

التفت هشام كالمذعور وقد هاجمه إحساس بـالاضطراب الشديد، ولم يستطع أن يحرك ساكنا كأنه أصيب بالشلل المفاجئ للحظات غاية فى التوتر وهو يرى بعينه سليمان بك وقد احتشـد الجميع حوله يمطرونه بكلمات الترحيب وعبارات التبجيل .

بدا سليمان بك واثقا من نفسه أكثر مما يجب وراح يتلفت برأسه يمسح المكان بنظراته المتأنية، ثم ما لبـث أن اتسـعت ابتسامته بمجرد أن رأى هشام وهـو يقـف مذهـولا لجرأتـه المتناهية .. وبلا تردد شق الطريق من وسط المجموعة تجـاه هشام حتى دنا منه تماما وبادره قائلا :

– أهلا هشام بك .. لا تتصور كم أنا سعيد برؤيتك هنا .

– أهذا مزاح جديد .. أم ..

قاطعه بجدية وهو يشير إليه بالجلوس :

– وهل عهدتنى كثير المزاح .. أنا .. أنــا جــد ســعيد برؤيتك .. وكنت سأدعوك لزيارتى هنا إن لم أجدك .

ضرب هشام كفا بأخرى وهو يقول ساخرا :

– يبدو أنك أفرطت فى الشراب قبل مجيئك إلى هنـــا .. وفى الحقيقة يا سليمان بك يجب أن أكون واضحا معك .. فأنا لا أرغب فى وجودك هنا فى بيتى .

أطلق سليمان بك ضحكة مستفزة وهو يقول بهدوء :

– هأنتذا تعود للخطأ مرة أخرى .. ألم تتعظ من موقـــف اللوكاندة .. ألا تذكر يوم أن قلت لك أنك ضيفى وأدركت بعدهـا أننى صاحب المكان .. واليوم تعيد الكرة دون أن تعلم أننى هنـا صاحب المكان ..و..

صمت برهة قبل أن يستطرد :

– وكل من فى المكان أيضا يا هشام بك .

نهض هشام منزعجا من هذا الثقيل،وارتفع صوته فجـــأة وهو يشير تجاه الباب قائلا بحزم :

– أخرج من منزلى فورا وإلا نالك منى مـــا لا ترضـــاه لنفسك .. أنصرف فورا ولا تدفعنى لقتلك .

توافد الجميع الواحد تلو الآخر وقد أحاطوهما فى شـــكل دائرة، وكأنهم يتأهبون لمشاهدة عرض فى سيرك متجول .

وازداد هشام غضبا وهو يردد :

– لقد حذرتك منذ برهة أن تكف عن هذا المزاح الثقيل،ولكـن يبدو أنك تستملح أن تضع نفسك فى هذا الموقف المؤسف .

– وببرود كبير أجابه سليمان بك قائلا :

– مسكين أنت يا هشام بك ..

ثم تركه ببضع خطوات داخل الدائـــرة البشـــرية وكأنـــه يحتمى بهم، ثم استدار فجأة تجاه هشام .. وقال صارخا :

– اسمع يا أخ هشام .. لقد تجاوزت حـــدودك، وإن لـــم تنصرف فورا فسوف استدعى لك من يلقى بـــك فـــى الخـــارج كالكلب .. الأجرب .. و..

ما كاد هشام يندفع نحوه تسبقه ثورته حتى فوجئ بـــالآخر يشهر مسدسه فى وجهه وهو يقول :

– لاتسع للقاء حتفك .. خطوة أخـــرى وســـتجد نفســـك متكورا تحت قدمى .. ماذا تريد أيها الســـاذج .. هـــذا البيـــت هو بيت المرأة التى ستصبح زوجتـــى اليـــوم. هـــل اعتـــدت

أن، تعيش عالـــة علـــى النســاء .. احتفــظ ببقايــا كرامتــك وانصرف فورا قبل أن أقتلـــك .

وسط ذهول الجميع ظهرت رجاء مصطفى وهى ترتـــدى أبهى ثياب لديها .. وتوقفت تراقب الموقف فى صمـــت وكـــل العيون تحاصرها بقلق شديد .. ثم قالت بثبات :

– أعتقد أنه ليس هناك مبرر لوجودك هنا يا هشام بك .

وقعت كلماتها كالصاعقة فوق هشام محمود، وشعر للحظة أن قدميه فى طريقهما لأن تخذلا ه ولن تقويا على حمله .. ثـــم تمالك نفسه بصعوبة بالغة وهو يقول بنبرة مرتعشة :

– رجاء .. ما هذا الذى تقولينه ؟.. رجاء أنت لست فـى وعيك .. هل ..

تقدمت بخطو ثابتة تجاه سليمان بك .. ثم أجابت بحزم :

– يا هشام بك من فضلك لا تدع الأمور تتطور أكثر مـن هذا .. أنت رجل لك أفكار ومبادئ خاصة لا تتناسب معـــى .. وأعتقد أنك توافقنى على ذلك .. فدعنى أحتفظ باحترامى لك ولا تجعلنى أبدو فى صورة أخرى غير التى تراها .

حاول أن يقترب ولكن قدميه لم تتعاونا معه فسكن منكسرا .. ثم قال :

– أشعر وكأنى فى كابوس موحش ..و..

تدخل سليمان بك قائلا :

– هذا الكابوس خاص بك .. أما نحـــن فنعيــش واقعنـــا الحقيقى .. السعيد .. وأعتقد أن دورك قد أنتهى الان.

قال موجها كلماته لرجاء بصوت كأنه من عالم آخر .

– وأموالى .. أين أموالى التى كنت أودعتها معك.

أجابت بجفاء :

– عادت لأصحابها ..

تمتم كأنه يحدث نفسه :

– مستحيل .. مستحيل أن تكون هناك مخلوقـــة مثلـــك، مستحيل أن تكونى بشرا . أنت شيطان فى صـــورة امـــرأة .. امرأة ضعيفة لا تستحقين حتى العتاب .. الخداع يجـــرى فـــى عروقك السوداء بلون قلبك .. مستحيل أن تكون رجاء مصطفى التى عشت معها أجمل أيام حياتى .. أنت ..

ولكلنها قاطعته بصوت يتأهب للبكاء :

– كفى .. لا تتحدث إلا عن نفسك .. انظر إلى صورتـك أولا .. تساءل من أنت ومن تكون .. ستشعر بالخجل حتمـــا .. ستشعر .

ولكنها لم تقو على مواصلة كلماتها المضطربة .

عندئذ هجم عليها كالنمر المتربص وسقط بكفه القوى فوق وجهها فتكورت بين الأقدام فى ذلة وضعف .. ثم التفت بقسوة تجاه سليمان بك الذى هاجمته رجفة المفاجأة ووقف مستسلما كأنه فى انتظار مصيره هو الآخر .. ثم تقدم نحوه بخطوة جريئة وهو محتفظ بنظرته القاسية إليه .. ثم قال :

– أما أنت فأنا أعلم أنك أجبن بكثير من تطلق رصاصة واحدة من مسدسك .. فرق كبير يا سليمان بك أن تقف وراء مسدسك مختفيا وبين أن تدفعه أمامك مقتدرا .

ثم عاد والتفت إلى رجاء وهى تحاول النهوض مرة ثانية .. وقال بصوت مخنوق :

– حقا أنتما متناسبان .. ولكنكما ستدركان يوما أننى أقوى بكثير من مؤامراتكما الدنيئة .. ستدركان يوما أننى قادر على غرس العلقم فى قلبيكما إلى الأبد .

و.. ترك الجميع فى ذهولهم ورحل .

***

(٦)

مرة أخرى يجد هشام محمود نفسه مدفوعاً للسير علـــى بلاج رأس البر .. ولكنها مرة شتان بينها وبين سابقتها . الليــل جاثم على صدره، والبحر موحش ومخيف .. خطواته متهالكــة يشعر بها وكأنها تدوس فوق قامته المحطمة، تســحق كبريــاءه وتمحق كيانه .. بركان الحقد أمتزج مع نبضات الحســرة فــى قلبه.

تلاحقت أنفاسه المضطربة وهو يتــابع صــور أحــداث الماضى القريب فى خياله .

توقف فجأة وهو يتلفت حوله تارة ويرفع رأسه إلى الأفـق تارة أخرى كأنه يبحث عن شئ .. أى شئ .. شــعر برغبــة عنيفة لكى يصرخ وسط هذا السكون المخيف .. يريد أن يحادث البحر الساكن والأفق المظلم والأرض تحت قدميه .. يريــد أن يتحاور مع الكون كله بما فيه من طبيعة خلابة وغياهب مجهولة .. أراد أن يستصرخهم متسائلاً .. من أنا .. ومن أكون ..؟!!

ولكن سقطت كل رغباته فجأة وغــاصت فــى أعماقــه المكلومة، عندما تراءى له عن بعد شبح يتثنى ويتمايل وكأنـــه شيطان البحر أو حارسه .. رآه يغوص تارة ثــم يطفــو فــى الأخرى، سرت فى جسده رجفة خوف حقيقية .

حاول أن يدقق النظر إليه .. توقف يتأملــه لعلــه يتبيــن حقيقته، ولكنه ازداد اضطراباً عندما غاب عن نظره تماماً وسط

الظلام، وصوت هدير البحر يزداد ارتفاعاً وكأنه يزحف إليـــه كالأفعى لينقض عليه ويسحبه إلى هذا المارد الهلامى .

وعند اقترابه بكل حذر اكتشف أن ما رآه هو شيخ كبــير يقوم بمفرده بإلقاء شبكته الصغيرة وهو يدفن نصف جسده فـــى الماء، ثم يجتهد بصعوبة لسحب الشبكة وبها أقــل القليــل مــن الأسماك .

اختلطت مشاعر هشام محمود فى هذه اللحظة مـــا بيــن ابتهاجه لتأكده من أن اضطرابه لم يكن له أساس وبين إحساســه بالرثاء لهذا الكهل الذى وقف وحيداً وسط دوامات البحر وقــد تجاوز الليل منتصفه، غير مبالٍ بهجمات الصقيع، ولا للمشقـــة التى لا تتناسب مع سنوات عمره .

وقف يتأمله قليلاً قبل أن يبادره صائحاً :

- السلام عليكم يا حاج .

التفت الشيخ نحوه وقد ظهرت تجاعيد الزمن على وجهــه تحت ضوء القمر القريب .. وبصوت هادئ وآمن أجابه الرجـل قائلاً :

- عليكم السلام يا ابنى .. انتظر لحظة .. أنا قادم إليك .

وبدأ يلملم أطراف شبكته ولكن بحركة أسرع من ذى قبل، ثم سحبها فوق ظهره المحنى واتخذ طريقه خارج الميــاه نحــو هشام الذى ازداد إعجابا بإصرار الرجل.

وما أن أقترب منه حتى بادره الشيخ قائلا :

– مرحبا يا ابنى .. هل من خدمة أقدمها إليك .. هل أنت غريب عن هنا ؟

ولم ينتظر إجابة وواصل مستطردا :

– لا بأس .. ليس مهما أن أعرف .. أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك ؟

– أبدا .. ولكنى كنت أتابعك وأنت تقوم بهذا المجهود الشاق بمفردك .. وتعجبت لذلك بالرغم من ..

قاطعه الرجل مبتسما فى طيبة :

– تعجبت من أى شئ ..؟

أجاب هشام وهو متردد وفى حياء :

– أقصد بالرغم من كبر عمرك و..تلك الشبكة العتيقة .

اتسعت ابتسامة الرجل، وكأنه أدرك أنه أمام شاب قد هاجمه الملل ليلا فانطلق على الشاطئ باحثا عن جديد .. فتقدمه بخطوه وهو يقول بإلحاح حقيقى :

– أرجو ألا تتعجب أكثر .. إذا ما دعوتك إلى كوب من الشاى عند هذا الكوخ الصغير .

وبلا إرادة ابتهج هشام لتلك الدعوة وقال مرددا :

– أشعر برغبة شديدة لقبول تلك الدعوة .

وسار خلف الشيخ وقد بدأت ملامح الفجر تفترش وجـــه السماء، حتى وصلا إلى كوخ صغير اتكأت أركانه على بعـض جذوع الأشجار الكثيفة فبدت كأنها جزيرة صغيرة منفصلة عــن اليابسة تحيط بها المياه من كل جانب .

وبالرغم من غرابة المكان إلا أن هشـــام كـــان بداخلــه إحساس بالأمان والتآلف تجاه الموقع وصاحبه .

وخلال بضع دقائق قليلة كان العجوز قد فرغ من إعـــداد أكواب الشاى، وكذلك من تهيئة مكان مناسب ليجلس عليه هشام .. ثم مد إليه يده بالكوب قائلا وهو يبتسم :

– أعرف أنه ليس ملائماً لك .. ولكن عزائى أنك ترغـب فى هذا

– سارع هشام قائلاً :

– بل إنى أشكر لك هذا الفضل .. ولكن .. أخبرنى أيـها الرجل الطيب . كيف تعيش هنا بمفردك . ولماذا .. ومنذ متى ؟ .. و..

قاطعه الرجل ضاحكاً ملء رئتيه :

– الآن عرفتك يا ضيفى الكريم .. أنت صحفى . أليـــس كذلك ؟ .. كل أسئلتك تدل على مهنتك .

أشار بكلتا يديه نافيا .. ثم قال بتأدب :

– أبدا .. وأعتذر عن تطفلى .. فالأمر مجرد استفسار، وأنت لست مضطرا للإجابة عليه .

– لا تعتذر يا ولدى .. لا تعتذر .

ثم غاب مع نفسه ونظر نظرة طويلة تجاه البحر الهادئ كأنه يسبح بروحه خلال أمواج الذكريات المتلاحقة، مما جعل هشام يشعر بتأنيب الضمير خشية أن يكون قد مس جراح الرجل دون قصد .. فبادره هامسا :

– أشعر وكاننى أخطأت فى أسئلتى .

أجابه الرجل دون تعليق على مضمون كلماته :

– أتعرف يا ولدى أن هذا المكان شهد نمو أجمل وأغلى زهرتين فى الكون كله، وفى حياتى .. ولدى وكيل النيابة .. وابنتى الطبيبة .

وبلا إرادة اندفع هشام قائلا فى تعجب :

– أنت لك ابن وكيل نيابة .. وابنة طبيبة ؟

أجابه العجوز بشموخ :

– نعم ولدى شريف وكيل نيابة تسبقه سمعته الطيبة فى كل مكان .. وابنتى نجوى دكتورة يشهد لها الجميع بالكفاءة .. كما أنهما يفاخران بى قبل أن أفخر بهما .

– وهل تذهب لزيارتهما دائما ؟

أطلق الرجل نظرة إلى البحر مرة أخرى قبل أن يقول :

– لا .. بل هما اللذان يأتيان لزيارتى باستمرار .. إنـــهما فى حاجة لمشورتى دائماً .. و..

والتفت نحوه مستطرداً :

– إنهما أولاد حلال .. إنه الانتماء يا ولدى .. الانتماء .

ردد هشام الكلمة كأنه يهمس بها لأحد غير مرئـــى، ثــم أردف :

– أى انتماء هذا .. الذى جعل ولديك يتركانك فـــى هـــذا المكان وحيدا، وأنت رجل قد بلغت من العمر أرذله .

لم يجبه الرجل، مما شجع هشام على أن يواصل انطلاقـــة كلماته المكبوتة قائلا :

– كيف سيكون حالك إذا مرضت فجأة .. بماذا أفـــادتك ابنتك الطبيبة ؟ .. كيف لو تعرضت لحادث ســـطو أو قتـــل .. بماذا سيفيدك ولدك وكيل النيابة ؟ .. الحقيقة .. لا شئ .. كـــل منهما يعيش حياته الخاصة . لا أحد منهما يشعر بـــك إلا فـــى لحظة وجودهما معك .. بضع دقائق لا غير .. أليس كذلك ؟..

نهض متوتراً وخطا خارج العش المتهالك، ثـــم توقـــف يتلفت إلى كل شئ وهو يردد بصوت مرتفع :

– نحن نكذب على أنفسنا .. نحاول أن نجعـــل أحلامنـــا الوردية وكأنها واقع حقيقى نتعايش معه .. ولكن الحقيقة غـــير

ذلك .. الحقيقة أن الحياة كئيبة غادرة .. لا أمان فيها .. الحقيقة أن السمك يأكلنا ونتوهم بأننا نصطاده لأننا أقــوى .. والبحــر يبتلعنا فنركبه باختراعاتنا الهزيلة .. والعواصف تدمر كل شــئ فنختبئ وراء جدران واهية كالنعام الذى يدس رأسه فى الــتراب .. والشمس تحرقنا فنقول إنها تدفئنا وتقتل الجراثيم .. والقمــر يضللنا وهو ينير للأفاعى لكى تخرج من جحورها ..و..

ولكنه صمت فجأة وقد تملكه الرعب تماماً عندما شعر بيد الرجل تربت على ظهره، فاستدار نحوه لتفضحه قطرات الدمــع تحت إشراقة الفجر الزاحف .

وقال الشيخ بهدوء :

– ادخل يا بنى .. ادخل حتى لا تؤذيك لسعات البرد .

استجاب هشام بلا تعليق .. وعاد مرة أخرى إلى مجلســه وهو مطأطئ الرأس .

عاد الرجل يقول مشفقا :

– لا تيأس يا ولدى .. الحياة مليئة بالخير .. و..

قاطعه هشام بنظرة تشع منها السخرية .. ثم قال :

– أى خــير يا رجــل ؟ .. أنت تعيش فى عزلــة عــن العالم ولا تدرى شيئا .. البشر اليوم يأكل بعضه بعضا . لم تعد للقيم مكان بيننا، كل شئ أصبح بشعا مقززا.

– وأنت ؟ ..

فوجئ هشام بسؤال الشيخ المقتضب .. فرد بنبرة ضعيفة:

– أنا .. أنا ماذا ؟

– أسألك .. وأنت .. هل تأكل الآخرين وتقتلهم .. هل تقسو عليهم وتظلمهم ؟ هل تخون الأمانة وتسرقهم ؟ .. هل تدمر الصداقات وتفرقهم ؟ .. هل ..

انزعج الرجل عندما بادره هشام قائلا بحزم :

– نعم فعلت .. ولكن .. ولكن قبل أن تسرح بفكرك وتظن بى الظنون، عليك أولا أن تعرف ما الذى دفعنى إلى ذلك .. ما الذى عمق جذور الشر فى صدرى . ودمر كل مبادئ الخير فى فكرى وتصرفاتى .. أنا ..

وبغير عمد أخذ هشام يسرد قصته أمام الرجل بكل تفاصيلها، كما لو كان يقف أمام ساحة العدالة لمحاكمة البشرية جمعاء .. تارة يصل بانفعاله إلى أعلى درجاته وأخرى يهوى به إلى أعمق أعماق السكينة .. والرجل يتابعه فى صمت بالغ، غير أن أسارير الحزن والأسى قد بدأت تتسلل بين تجاعيد وجهه وكأنه هو الآخر وجد نفسه طرفاً فى هذه المأساة التى يعيشها الشاب الماثل أمامه .. أو كأنه تخيله ولده ثم انتبه لسؤال هشام وهو يقول :

– والآن ما رأيك فى الحياة .. أما زلت ترى الخير فيها والسلام فوقها ؟

– نعم .. بل أراها أرحم بكثير مما تصـــورت .. لأنـــها صبرت عليك وعلى أمثالك وأنتم تنثرون بذور الشر والحقد فـى كل مكان .. أراها مسالمة للغاية لأنها أفسحت لكم مكاناً لتعبثـوا بمعانيها .

بدا الغضب واضحا فى نبرة هشام وهو يقاطعه قائلاً :

– ما الذى تثرثر به يا رجل .. أنت ؟

ولكن الشيخ يتجاهله ويواصل كلماته بحماس :

– اسمع يا ولدى .. ليس بيننا مصلحة مشـــتركة حتـــى أجاملك أو أنافقك . أنت لم يصادفك قط من يحـــد غـــرورك أو يواجهك بكلمة خير وحق .. لقد ركبت فـــوق مشـــاعر الحقـــد والعناد وأنطلقت بها تحلق فى أفق الشر تبحـــث عـــن الوهـــم والرذيلة .. أنت لم تواجه الحقيقة لأنك لم تحـــاول أن تتعـــايش معها، بل حاولت أن تسلك مسلكهم فأصبحت منهم، بالرغم مـــن أنك تبدو لست شريراً .. وأنا أراك كذلك .

– أنا لم أفعل أى مكروه .. أنا حاولت أن أسترد حقى .

– الحق يحتاج للقوة .. قـــوة الصـــبر .. والعزيمـــة .. والإيمان .. وليس قوة الشر ومكائد الشـــيطان .. ابحـــث عـــن الحقيقة لعلك ..

قاطعه هشام وهو يردد بيأس :

– الحقيقة .. أين هى الحقيقة ؟

حاول الشيخ أن يسترسل فى الحديث إلى أنه فوجئ بهشام ينهض فجأة، ثم أتخذ طريقه إلى خارج العش مما دفع الرجل أن يصيح به قائلا :

– إلى أين .. ألا تجلس قليلا :

ولكن هشام واصل خطواته مبتعدا بهدوء، والشيخ يتبعه على باب العش مناديا .

– انتظر يا ولدى .. إلى أين أنت ذاهب .. ألا تذكر لى اسمك ؟

أنا أسمى سالم .. هل ستعود لزيارتى ؟

التفت هشام نحوه وقد اتسعت المسافة بينهما وأطال النظر إليه ثم عاد إلى مسيرته دون أن يتفوه ببنت شفة، ولكنه ردد فى صدره محدثا نفسه قائلا :

– .. لا داعى لذلك ..

وصل إلى سيارته بعد أن ظل طوال الطريق يسترجع كلمات العجوز وصورته فى خياله، ثم استقلها دون أن يسعى للتأكد مما إذا كان سليمان بك لا يزال فى الشقة أم لا .. وانطلق بها عائدا إلى القاهرة .

***

(٧)

ليالى الوحدة مريرة .. اعتكف هشام محمود فى داره لا يحاول أن يتصل بأحد ولم يسع أحد إليه .. مارس إرادته التى سلبت منه دون أن يدرى، واتخذ قراراً بالعزلة حتى يتمكن من استيضاح واقعه دون مؤثرات أخرى ..

كان فى حاجة إلى وقفة هادئة، بعيدة عن رائحة الخيانة والدوافع الشريرة .

فكان له ما أراد .. وبدت الوقفة مأساوية، لأنها أتاحت الفرصة له لكى يرى نفسه بوضوح ويتعايش مع واقعه بصدق .. وكأنه أدرك فى هذه اللحظة فقط حقيقة وجوده .. كيان بلا ظلال ..

شاب ذابت أحلامه الوردية فى أتون الحقد .. ونخر سوس الشر فى حيويته .

وأمتصت مشاعر غربة النفس كل رحيق آماله .. شاب رسم الطريق فى خياله فضاع فوقه .. وافترش أرض النفاق فداسته خطى الخطيئة .

شاب بلا شباب، وكيان بلا وجدان، بلا انتماء .

أحس بالاختناق وهو يتساءل فى صمت .. من أنا .. تحرك إلى غرفة أخرى وكأنه يهرب من نفسه، ولكن صدى أعماقه تابعه وهو يردد .. من أنا .. حاول أن يخفى رأسه فوق فراشه بينما شعور الخجل يتسلل تحت جلده وهو يطارده متسائلا

من أنا .. نهض تجاه الشرفة كأنه يحاول أن يستبدل هواء صدره بغيره، ولكن أحاسيس الغربة داهمته بقسوة وهى تصرخ فى أعماقه متسائلة .. من أنا .. بل من أنت ..

انطلق خارج المنزل يقطع الطرقات بسيارته على غير هدى، وهو يتلفت حوله كأنه يبحث وسط الجموع عن نفسه .. عن دليل يقوده إلى حقيقة تكشف له .. من يكون .

توقف أمام منزل عبدالغنى .. صعد درجات السلم ورأسه ملئ بالتساؤلات، حاول أن يرتب بعض الكلمات التى سيبادره بها ولكنه فشل .

لم ينتظر طويلاً أمام الباب بعد ما دق الجرس .. وكانت الصاعقة .. شعر بالأرض تميد من قدميه، وصدره ينتفخ تأهباً للانفجار .. لم يصدق عينيه وما يراه أمامه .. الصدمة ألجمت لسانه وشلت حركته .. تصورها وهماً .

ولكنها هى .. رجاء مصطفى .. تقف أمامه ولكنها أقل ذهولا منه .

بادرته بفزع وإلحاح :

أرجوك .. أرجوك انصرف فوراً قبل أن يراك أحد .. سألتقى بك فى الخارج .. انتظرنى عند نهاية الشارع .. أرجوك .. لا وقت للتفكير .. الآن سألحق بك فوراً .

تسمرت نظرته إليها وهو صامت .. ولكنها تفيقه من شروده مرددة بارتباك :

– هشام .. الوقت لا يسمح .. من فضلك انصرف وسأذكـــر لك كل شئ .. لا تفسد ما أرتبه .. إنها النهاية .. النهاية .

تصرف كالنائم الحالم .. بلا إرادة، استدار يهبط الدرجات من جديد وهو يجتر المفاجأة صامتاً .

دقائق قليلة ظهرت بعدها رجاء مصطفى من خلال مـــرآة السيارة وهى تتجه نحوه مسرعة، ثم اندفعت إلى داخلها بجـواره وهى لاهثة ورددت :

– تحرك بسرعة .. تحرك ..

قطع الطريق إلى المقطم .. وهناك استقر بالسيارة فـــوق الربوة العالية حيث يوجد أحد الكازينوهات، ودخلا فى صمت .

وما إن جلسا حتى سارعت قائلة :

– أعلم أننى فى نظرك أحقر ما فـــى الوجـــود .. وأدرك جيداً كيف أصبحت مشاعرك تجاهى .. ولكن اليوم وفى هـــــذه اللحظة قررت أن أبوح لك بالحقيقة كاملة .. ليس من أجـــل أن تغفر لى أو من أجل أن أستعيدك مرة أخرى .. ولكن من أجل..

ولكنه قاطعها لأول مرة قائلا :

– أهى أكذوبة جديدة .. أم مؤامرة لصفقة كبيرة ؟

– لا هذه .. ولا تلك .. ولكنها الحقيقة .

– الحقيقة .

– نعم الحقيقة .. وأرجوك لا تقاطعنى حتى أنتهى منها ..

ثم اتخذ قرارك فى النهاية .

أشاح بوجهه بعيداً عنها، ثم قال يائسا :

– قرارى .. أى قرار يمكن أن يتخذه إنسان مثلى .. لقد دمرت كل أمل لى فى الحياة .. جعلت منى ألعوبة تعبث بها أقدام السفهاء ..

حطمتى كبريائى وأذللت رجولتى .. جعلتنى ..

ولكنها تتدخل والدموع تسبق صوتها :

– أرجوك كفى .. انتظر حتى تعلم الحقيقة، لترى كيف يمكن أن تذل النفوس .. كيف يمكن أن تداس بالإقدام دون أن تجرؤ على الصراخ، انتظر لتدرك كيف يمكن أن تذوب الآمال وتتحطم الأحلام دون أن يكون لك حق الشكوى .

حاولت أن تستعيد اتزانها وهى تمسح الدمع من بين جفونها قبل أن تسترسل قائلة :

– سأضطر أن أعود بك إلى الماضى البعيد، منذ حادثة انهيار المنزل .

يومها كما ذكرت لك أحسست بالضياع يتقاذفنى فوق أمواجه الثائرة .. لم أجد مفرا من اللجوء إلى عبدالغنى .. ذلك الشيطان .. حاولت أن أعرض عليه مأساتى لعله يشفق على، لم أكن أدرى أنه فاقد لكل معانى الإنسانية وأن أعماقه لا تضم سوى الشر وبراثن الخطيئة .

فوجئت به يمهد لى الطريق إلى سليمان بك بدلاً من أن يتدخل عندك لأعود إلى عملى .. كنت حائرة وضائعة .. لا ملجأ لى ولا أهل .. إحساس بالوحدة أفقدنى الرغبة فى المقاومة .. كنت يائسة .

ترقرقت ابتسامة ساخرة فوق شفتيه قبل أن يقول :

– غريبة .. أنت تحكين مقدمة روايتك بإتقان شديد، حتى تصورت أننى أسمعها لأول مرة ..

لم تعلق على كلماته وقالت :

– أخذنى عبدالغنى إلى سليمان بك الذى كان لا يزال يلعب دور العاشق الولهان لى . وهناك تمت أغرب اتفاقية يمكن أن تتم بين ثلاثة أفراد .. استغلها لقلة خبرتى وقسوة ظروفى، واستطاعا أن يخدعانى بالمكر والدهاء الأسود .. يومها فوجئت بسليمان يعرض على أن أتزوج من عبدالغنى زواجا عرفيا لفترة محدودة حتى يتمكن من تسوية بعض الأمور الخاصة به، وبرر ذلك بأمور خاصة بزوجته وأعماله .

لم يستطع هشام أن يتمالك نفسه وهو يضحك بغيظ دفين، ثم قال:

– لم أكن أدرى أنك تجيدين التأليف أيضا بخلاف التمثيل.

ولكنها لم تهتم بكلماته الساخرة .. وواصلت قائلة :

– وأفهمنى أنها الوسيلة الوحيدة التى تمكن سليمان من الدخول والخروج إلى المنزل دون أن يلفت نظر أحد، وكذلك لضمان سلامة موقفه إذا ما تعرض لموقف حرج .. ولم تمض

فترة طويلة بعد زواجى عرفياً من عبدالغنى، ثم انتقلت بعدهـــا إلى رأس البر حسب تعليمات سليمان بـــك، وهنـــاك اكتشـــفت اللعبة. حيث بدأ فى استغلالى لكى ألعب دوراً قذراً مع العمـــلاء وضيوفه .. ومرت الليالى طويلة، ووجدت نفسى أغوص فـــى هذا المجتمع الغريب، وبدأت علاقاتى تكثر ووجودى بـــات لـــه أهمية كبيرة بالنسبة لسليمان .. حتى جاء اليوم الذى ثرت فيـــه لكرامتى ولوضعى وطالبته بالابتعاد عنى أو الزواج الحقيقى .

قال بلا مبالاة :

– ثم ماذا ؟..

– فوجئت به يعرض علىَّ الزواج فعلا .. لن أنكر أننـــى شعرت بالسعادة وتصورت أن الدنيا قد بدأت تكف عن عنادهـــا لى .. وقرر إنهاء علاقة الزواج العرفى من عبدالغنى .. وقـــام بتمزيق الورقة الخاصة بى أمامى وأمضيت أسبوعا بعدها أعيش فى حلم وردى لما ستحمله لى الأيام المقبلة .. وفى اليوم المحدد لعقد قرانى فوجئت به مرة أخرى يحاول إقناعى بكـــل الطـــرق لأن يتم زواجى منه عرفياً كحل مؤقت حتى تنتهى مشاكله .. لم أعترض .. بل لم أحاول الاعتراض لأننى كنت كالغريقة، أبحث عن أى خيط شرعى يربطنى به ..و..

قاطعها هشام قائلا :

– وماذا فى الأمر ؟ .. إنها صفقة أفضل من صفقـــة .. بالتأكيد سليمان بك أفضل كثيراً من مجرد موظف كعبدالغنـــى مثلاً .. علماً بأننى أجد صعوبة فى تصديقك، ولكنى أحـــاول أن

أصل لما تحاولين أن تقوليه .

قالت وهى تحاول أن تجفف دموعها :

– بل انتظر المأساة .. علمت فيما بعد أنها كانت مؤامـرة دبرت بينهما حيث لم يتم طلاقى من عبدالغنـى الـذى احتفـظ بورقته، وفوجئت بسليمان يلوح بهذا السلاح يهددنى به ..و..

صرخ هشام بلا إرادة قائلا :

– كفى .. كفى خداعا وزيفا .. ابحثى عن وسيلة أخـرى .. عن رجل آخر .. لقد أصبحت غير صاحب فائدة .. فـابحثى عن إنسان آخر .. أو عن هدف آخر .. تريدين إقنـاعى بـأن هناك اتفاقا تم بين عبدالغنى وسليمان من أجل تهديدك .. لمـاذا .. ولمصلحة من .. وكيف ؟

– نعم تم اتفاق .. بل مؤامرة قذرة .. أنت تعلم أن أمثـال عبدالغنى على استعداد للقيام بعمل أى شئ فى سبيل المـال .. عبدالغنى يبيع كل شئ حتى نفسه من أجل المال .. أنت نفسـك كنت على استعداد لعمل أى شئ فى سبيل انتقامك من سـليمان بك، لمجرد أنه خدعك فى صفقة أو استولى على أموالك .. أنت ثرت لكرامتك ولرجولتك أو حاولت أن تثور .

أما أنا فلقد ضاعت منى إرادتى .. سرقوها كرها وعدوانا .. فقدت آدميتى وسحلوا كرامتى وشردوا هويتى .. أصبحـت مجرد آلة لا تملك غير الطاعة ..و..

نهضت منفعلة وتقدمت بخطوات قليلة إلى حافة الهاويـــة، كأنها تفكر فى الانتحار .. ثم أردفت دون أن تلتفت إليه .

– أى عذاب هذا .. هل تخيلت نفسك يوما وأنـــت تقـدم كيانك كله قربانا للرذيلة دون إرادة .. هل تصورت نفسك يومـا لا تملك حق القيام أو القعود .. أو متى تأكل أو تشرب .. هــل تخيلت نفسك يوما لا تملك حق الحب .. فقط عليك أن تطيــع .. أن تبتسم وأنت ترغب فى التقيؤ، أو أن تقترب من رائحة العرق النتنة ولا تستطيع أن تبتعد بوجهك .

وقف من ورائها وهو يمسح بنظره المنـــازل المتراصـــة والمتلاحقة كأنه استوعب المدينة بنظرة واحـــدة .. ثـــم همـــس مردداً لنفسه .

– "هل من الممكن أن تخفى هذه الجدران تلك المآســى .. هل يمكن أن يعيش وسط هذا المجتمع أناس بـــهذا القـــدر مـــن القسوة والجفاء .. أنا لا أصدق، وعقلى لا يســـتوعب .. فأنـــا أشعر بالغثيان" .

التفتت إليه وهى تحاول أن ترسم ابتسامة باهتـــة فـــوق شفتيها . ثم قالت :

– لا عليك .. أنا فقط حاولت أن أبُوح لك بالحقيقة لعلـــك تبقى ولو بالقدر القليل من مشاعرك الطيبة نحوى .

قال بلهفة :

– ولكن أخبرينى .. لماذا طالبتنى بالابتعاد عندما ذهبت إلى عبدالغنى .. ثم ما الذى جاء بك إلى هناك ؟

عادت إلى مجلسها ثم تبعها قبل أن تجيبة قائلة :

– لأن الفرصة واتتنى .. أنت تعلم أن عبدالغنى وسليمان شركاء فى كل عملياتهما الدنيئة .. ولقد استطعت الحصول على أوراق ومستندات تثبت خيانة سليمان لعبدالغنى .. كما أننى لدى فرصة تمكين هذا الرجل للانتقام من سليمان .. حتى المجرمين عندهم معاهدات شرف ..

فحضرت إليه لكى أساومه بأن يعطينى حريتى .. ورقة زواجى العرفى .. مقابل أن أعطيه الأوراق وكل البيانات التى يريدها .. أما سليمان بك فأمره بسيط فيما بعد .. وبإمكانى الحصول على حريتى منه بسهولة وبكل الطرق .

– وإذا رفض عبدالغنى .

قالت بثقة :

– أنا متأكدة أنه لن يرفض .. عبدالغنى لا يهمه إلا المال حتى ولو باع نفسه . المهم أن يحصل على المقابل .

أحاول تصديقك .. فما المطلوب منى .. هل ؟

لاحقته متوسلة :

– لا شئ .. سوى أن تبتعد اليوم عن عبدالغنى، حتى لا يشعر بما يدور حوله .. أن تعدنى بألا تتفوه بأية كلمة ذكرتها

لك حتى أتمكن من تخليص حياتى من هذا الكـــابوس .. أنـــا لا أطلب منك المستحيل .. فقط الابتعاد سويعات قليلة .. ثم افعـــل ما تريد فيما بعد .

قال بنرة منكسرة وكأنه تذكر واقعة فجأة :

– وماذا فى مقدورى أن أفعله ؟ .. فبسببك .. أو ســـبب ظروفك أصبحت الآن لا أملك حق الاختيار .. لقد أصبحت تائها وسط تلك الدوامات، ولهذا فأنا لا أملك غير تصديقك .

ثم تحركا بهدوء إلى السيارة وكل منـــهما شـــارد الفكـــر .وكأنهما يتجهان إلى حيث المصير المجـــهول، أو إلـــى حيـــث ينتظرهما جلاد الموت .

وفى الطريق حاولت أن تختلس إليـــه النظـــر، ولكنـــها تراجعت أمام قسمات وجهه الجامدة، فسكنت صامتة حتى نهايـــة الطريق ثم رحلت دون كلمة وداع .

***

(٨)

كان كالفهد الأسود .. يخطو وكأنه يقفز وهو ينتقل من حجرة إلى أخرى، السكون خاضع لسيطرة الليل، لا صوت سوى حفيف أشجار الحديقة .. وبالرغم من هذا لم يشعر هشام محمود أنه وحيد داخل شقته .. شعر بالأنفاس تحيط من حوله، أصوات غريبة تصول وتجول فى رأسه .. الدماء تغلى فى عروقه ونبضات قلبه تدب كالمطرقة، ضوضاء فى أعماقه .. حتى الصمت البارد الذى أرخى سدوله على المكان تصور أن له صدى عنيفا يكاد يخرق أذنيه .

كان متيقنا أنه وحيد .. ولكنه لم ينتبه بأن لديه ضيفا يحلق بجانبه وفوقه كان ضيفه فى هذه اللحظة هو الشيطان .

استقبله بلهفة .. وأفسح صدره ليعبث بمشاعره كما يريد . ارتمى فى أحضانه أو ذاب فيه .. وبدأت كل نذر السؤ تتراقص أمام عينيه .. وتساؤلات الشر تحمل على راحتيها سموم الحقد والكراهية .. من أجل ذلك لم ينته الحفل الذى أقامه لضيفه الخفى قبل أن تكون هناك نتيجة لحوارهما .. فكان القرار .. القرار الذى أسعده كثيراً وأطفأ بعضاً من ألسنة اللهب فى أعماقه .. كان قرارا مريحاً بالنسبة له، حتى إنه استعذب حروفه داخل كئوس الخمر .

قرار بين شريرين ضعيفين، أحدهما بطبعه والآخر مقهور.

قرار بين إنسان .. وشيطان .

.. لابد من قتل سليمان بك .

أخذ يردد هذا القرار وكأنه يتغنى بكلمات رقيقة عاطفية وهو فى طريقه إلى رأس البر لينفذ ما أوصى به ضيفه إليه .

لا شئ كان يمكن أن يوقفه .. إصراره غاص فى مقلتيه حتى أعماه عن كل ما حوله .. إلا الطريق ونهايته .. ولكن .. وكأن القدر أراد أن يقول كلمته ليجعل هشام محمود يلتفت تجاه مكان الصياد العجوز .. أو الصديق العابر .. ولفت نظره أن عدة سيارات تحيط بالكوخ الصغير ومجموعة من الرجال والنساء فى شبه هرج وكأنهم يلعبون .

توقف بسيارته خلفهم، ونزل منها يتحسس الخطى بقدميه متردداً، وقد دفعه فضوله الحاقد وهو فى هذه الحالة أن يستكثر على ذلك العجوز كل هذا الرزق .

همس فى صدره ..

– يا له من عجوز محظوظ .. كل أصحاب هذه السيارات تركوا أفخر المحلات، وجاءوا ليشتروا منه الأسماك .

.. ها هو لص يبدو صغيرا .. لا يدفع ضرائب ولا يدفع مقابلا لبضاعته .. ولكنه أغنى كثيراً من أمثالى أنا ..

.. المظاهر أفسدت حياتى ومستقبلى .. ليتنى تواريت مثله فى مثل هذا المكان الحقير، كنت سأحظى بمال وفير .

.. كم أحقد عليك أيها العجوز اللئيم .. بل كم أحسدك .

وعند اقترابه لاحظ الفزع على وجوه الغرباء .. والشيخ

غير موجود بينهم .. فزاد من سرعة خطواته وشق الطريق وسطهم تجاه العش، وما إن اقترب من البوابة المتهالكة حتى تصدى إليه البعض منهم، ثم بادره أحدهم قائلا :

– من فضلك يا سيد لا توجد أسماك اليوم .

– أنا لا أريد أسماكاً .. أنا ..

قاطعه بعصبية مكبوتة :

– ماذا تريد إذن ؟.. نحن فى ظروف لا تسمح ب. ..

– أريد عم سالم .

ازداد غضب الشاب بعض الشئ .

– قلت لك لا بيع ولا شراء اليوم :

فتدخل آخر قائلا :

– عم سالم مريض جداً، ونحن فى انتظار سيارة الإسعاف ..و..

وقبل أن يتدخل ثالث اندفع هشام من بينهم إلى داخل العش، ليجد عم سالم قد تسمر جسده فوق الفراش وأنفاسه تخرج بصعوبة من رئتيه، وبجواره تجلس فتاة رقيقة اللفتات رائعة الملامح فى عينيها بريق من قطرات الحب والحنان .

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة انتبه على صوت يهمس إليه من خلفه قائلا :

–من أنت .. وماذا تريد ؟

التفت وراءه ليجد نفس الشاب الأول .. فبادره بهدوء قائلا :

– أنا هشام محمود .. صديق عم سالم .

بدت أسارير الشاب مرتجفة وهو يقول :

– أنا شريف سالم ابن هذا الرجل العظيم ..و..

أشار تجاه الفتاة مستطرداً .

– وهذه ابنته شقيقتى الدكتورة نجوى سالم .

وفى لحظة قفزت الفتاة الجميلة تجاهه، وكأنها ستجد لديـه سر الحياة أو بلسم الشفاء لوالدها .. وأخذت تثرثر قائلة :

– لقد اتصل بى ظهر اليوم وأبلغنى أنه يشـعر بـالوهن والضعف .. كان يخشى أن يفارق الحياة قبل أن يرانـا .. يـا إلهى احفظ لى أبى .. لست أدرى ماذا أفعل .. كان عظيماً فـى كل شئ .. لا أعرف ماذا أفعل .. لا أعرف ماذا سيحدث ..

جئت مع كل زملائى الأطباء .. وأخى .. أنا فى انتظـار سيارة الإسعاف .. بل نحن جميعاً فى انتظارها .. أنا .

أمسك بها شريف وهو يهدئ من روعها .. بينما حـاول هشام محمود أن ينطق بكلمة، ولكـن صـوت رنيـن سـيارة الإسعاف قطع عليه محاولته .. فاستسـلم للصمـت والرجـال بجواره يرفعون جسد عم سالم الساكن بلا حراك ملحوظ . ثـم ساروا إلى سيارة الإسعاف ودفعوا به داخلها .. وفجأة وجد نفسه بلا إرادة يصرخ منادياً .

– عم سالم .

ثم انطلق يلحق به داخل سيارة الإسعاف، وما كاد يجلس بجواره حتى ذابت مشاعره تأثرا حينما نظر إليه العجوز بحب كبير وهو يحاول أن يربت على يده مشجعا .. وبصعوبة بالغة ترقرقت فوق شفتيه ابتسامة طيبة .. وكأنها فرحة الحياة .. أو فرحته بلقائه مرة أخرى .

وفى المستشفى كانت الساعات تمضى متوترة وقلقة .. الجميع يتملكهم الخوف من أن يختطفه الموت من بينهم، بينما جلس هشام محمود منفردا بعيدا عن الآخرين متفاديا أى استفسار عابر عن سر العلاقة بينه وبين عم سالم، إلا أنه لاحظ مع مرور الوقت أنه يعامل معاملة القريب قبل الصديق، وخاصة من أبناء الصياد، حتى فوجئ بخروج الدكتورة نجوى من الممر المؤدى إلى غرفة العناية المركزة واندفعت تجاهه تحمل البشائر السارة فوق ملامحها .. ثم قالت عند اقترابها منه :

– الحمد لله .. لقد انتهت مرحلة الخطر .. يوم أو يومان ثم يستعيد مرة أخرى قدرته على ممارسة حياته العادية .. وبالمناسبة أريد أن أقدم إليك جزيل شكرى وأمتنانى .. فى الحقيقة أنا ..

ولكنه بقطع عليها الحديث قائلا :

– أنا لم أفعل شيئا .. لقد جئت مصادفة .

– أعلم أنك جئت مصادفة .. ولكن فى نفس الوقت أعرف عنك الكثير، فوالدى ذكر لى قصتك العجيبة فى أثناء زيارة من

زياراتى له .. ولا أخفى عليك أنى لم أكن أتوقع أن توجد فى مجتمعنا هذه النماذج الشريرة والشاذة .

حاول أن يبتسم وهو يقول :

– كما أننى لم أكن أتوقع أن يوجد فى مجتمعنا نماذج مثلكم .. أو على الأقل مازالت موجودة .. إننى أقف بينكم لا أسمع غير الكلمة الطيبة .. ولا أرى سوى الخطوات نحو الخير والحب .. ولا أشم غير رائحة عطر الانتماء والمودة الصادقة .

ضحكت برقة شديدة وهى تقول :

– هذا ما لم أكن أعلمه عنك .. ويبدو أن أبى أيضاً لم يدركه .

تساءل فى لهفة :

- عن أى شئ ..؟

- عن أنك شاعر أيضاً .

انفرجت أساريره وهو يجيبها بصدق :

– إنها الحقيقة التى أشعر بها وأنا بينكم .. وبالرغم من تأكدى بأنها لن تدوم أكثر من سويعات قليلة، ثم تغيب كما ظهرت .. إلا أننى لا أتوقع أن أنساها مدى حياتى .. فأنا مؤمن بأن لحظة الصدق خير من عمر كاذب .. و..

ولكنه توقف عن الكلام عندما ظهر شريف سالم مسرعاً نحوه .. قائلا :

– هشام بك .. والدى يريد رؤيتك .

أسرع هشام إلى داخل الغرفة واتجه إلى فراش عم سالم الذى استقبله ببشاشة وطيبة .. وهو يحاول أن يرفع من صوته قليلا متسائلا :

– ألن تقول لى ما هو اسمك .

ارتعشت شفتاه وهو يجيبه قائلا :

– هشام .. اسمى هشام محمود يا عم سالم .. أقصد يا أبى .. وانحنى فوق رأسه وقبلها برفق، ثم نهض تاركا الغرفة دون أن ينطق بحرف واحد، متخذا قرار الرحيل .

وعند نهاية الممر فوجئ بالدكتورة نجوى تلحق به منادية:

– هشام بك .. هشام بك ..

وكأنهما كانا على موعد . أسرع هشام بالخطى نحوها، ثم توقف أمامها دون أن ينبس بحرف .. فبادرته بنظرة مليئة بالمعانى المتشابكة ثم قالت :

– ألن نراك مرة ثانية .. ألن تعود ؟

أجاب بلا إرادة :

– بل أرجو أن تسمحى لى بالعودة ..فأنا أريد أن أراك ثانية .. أراكم جميعا . فهل ستفسحون لى الطريق إلى مودتكم .

قالت والابتسامة تضئ وجهها الجميل :

– نحن جميعا سنكون فى انتظارك .. وأنا فى مقدمتهم .

ثم رددا معاً عبارة واحدة :

.. إلى اللقاء ..

كانت بداية غريبة عليه .. بداية نظيفة، ليس فيها شك أو سوء ظن، لا تحتاج لمناورات أو دسائس .. أحس بها وكأنها رحلة فى عالم غريب لم يطأ أرضه أحد غيرهما، أو كأنهما يومان فى عمر الأحلام السعيدة التى عاشا فيها ومن خلالها اقتربا لدرجة الامتزاج .

يومان كاملان قضاهما هشام محمود وهو لا يدرى أيقظاً كان أم حالماً، سحره ذلك الإحساس الجديد والغريب، بدا مستسلما تماما لقدره السعيد .. وكانت الدكتورة نجوى أكثر منه سعادة وإيمانا به وتحمساً لقضيته .. حدثته كثيراً واستمعت إليه أكثر .. طافت معه إلى حيث أحلام المستقبل الوردى، وطاف بها إلى حيث الإرادة والإصرار لتحقيق كل الأمانى .. كان يتنسم من أنفاسها وكأنه ينظف رئتيه من الهواء الفاسد .. هواء الماضى .

كان ينصت إليها وكأنه يستمع إلى لغة جديدة عليه .. أحرف غريبة يسعى لكى يتعلمها .. كان ينصت إليها بحب مفاجئ .. كما أنها كانت صادقة وهى ترسم له طريق المستقبل بإخلاص كبير .. بدت مؤمنة به إيماناً غريباً حتى عن نفسه .. كانت تحثه على النسيان والغفران، وأن يبدأ من جديد فى حياته .. وأنه من المؤكد سوف ينجح .. كما حدثته عن نفسها، عن كفاح أبيها والانتماء الذى يربط هذه الأسرة الصغيرة، عن

إصرارها على النجاح، وإيمانها بأن الحب والخير هما صـــرح الأمان فى حياة الإنسان .. و..

سألته ببراءة :

– أنت لم تحدثنى عن أهلك .

التفت نحوها مرتبكاً، وكأنه تذكر فجأة أنه من عائلــة وأن لديه أهلاً كأى إنسان .. قال :

– إننى من قرية صغيرة من محافظة الدقهلية .. وأعتقــد أنها مازالت صغيرة .

– تعتقد !! هل لك مدة طويلة لم تزرها .

– نعم .. أكثر من سبع سنوات .

ودون أن تلحظ انفعالها الزائد .. صرخت قائلة :

– سبع سنوات لم تر أهلك .

طأطأ رأسه خجلا وهو يجيبها :

– فى الحقيقة نعم .. فأنا لم أر والدى منذ سبع سنوات .. كما أنى علمت أن شقيقتى على وشك الزواج .. ولكن ..

حاول أن يستعيد توازنه مستطردا :

– ولكن .. أرســل لهم بانتظام ما يعينهم علـــى الحيـــاة الكريمة .

رددت وكأنها تحدث نفسها .

– المال .. المال !!..

لا حقها وكأنه قد واتته فرصة يرجوها .

– ما رأيك لــو تأتين معى لزيارتهـــم .. إن قريتنـــا جميلة ..و..

قاطعته بلهفة حقيقية قائلة :

– أنت لست فى حاجة أن تحمسنى لرؤية قريتكم .. كـــل بلادنا جميلة .. ولكنى أرغب بالفعل فى زيارتها وزيارة أهلك .

قال سعيداً :

- إذن ســأســافر إلى القاهرة لأحضر حقيبتى فمتـــى سنلتقى ؟

– اليوم سأعود مع أبى إلى القاهرة فى شقتى الصغـــيرة، ليتم فترة النقاهة هناك .. فما رأيك أن يكون موعدنا بعد غد فى المستشفى التى أعمل بها .. أو تحضر إلى شقتنا لترى أبى .

وبلا تمهيد فوجئت به يقول :

– لا أعرف كيف أشكرك .. فأنت جعلت منى إنسانا آخر فى هذه الفترة القليلة .. أرجو أن ..

أوقفته بإشارة من إصبعها .. ثم قالت مازحة :

– أرجوك أنت لا تعطلنى .. لا تنس أننا سنسافر اليوم .. ستجدنى فى انتظارك كما اتفقنا .. و..

مدت إليه بورقة صغيرة وهى تقول :

– وهذا عنوان منزلنا الصغير .. أرجو ألا تنسى .. فهو فى منطقة سكنك .

تمتم كمسحور وهو ثابت النظر إليها :

– نعم سأنسى .. أقصد لن أنسى .. مستحيل أن أنسى ..

فوجئ بنفسه يقف وحيداً، بعد أن تركته مسرعة وهو لا يزال يردد فى صمت :

- كيف أنسى :

***

(٩)

شعرت بأن الشمس تغرب من أفق السماء لتشرق فى قلبها .. كانت سعيدة بكل شئ حولها .. وكأنها رأت الريف لأول مرة فى حياتها .. اللون الأخضر بدا ناضراً يفـــترش الأرض فـــى سلام، وزقزقة الطيور بدت فى أذنيها وكأنها تغرد على أنغــــام لحن جميل .. السماء صافية والهواء نقى والوجوه مبتسمة . كل هذا استقر فى وجدان نجوى سالم وهى عائدة من رحلتــها مــع هشام محمود التى زار فيها عائلته وقريته .. كانت سعيدة لأنــها أدركت بأن سلطان الحب قد بدأ يفرض إرادته عليه وعليها، كما أنها سعدت أكثر عندما ردد والده بطيبة حينما رآها قائلاً :

– عروستك جميلة يا هشام يا والدى .

توقفت كثيرا عند تلك العبارة، وتوجهت بنظرتـــها إلـــى هشام الذى أكد المعنى فى صمت أبلغ من الكلام .

قفزت درجات السلم إلى شقتها، تسبقها الفرحة والطمأنينـــة .. وعند دخولها فوجئت بأخيها شريف يتصدى لها وكأنـــه كـــان فـــى انتظارها فى هذه اللحظة .. وقبل أن تنطق بحرف بادرها باقتضاب:

– أين كنت يا دكتورة ..؟

أجابت وهى تبتلع دهشتها :

– أنت ترى أين كنت .. كنت فى الخارج طبعاً .

استدار بعصبية قائلا :

– أنا لا أمزح .. أين كنت .. هل ؟

بدأت تثيرها طريقة كلماته وهى تقاطعه قائلة :

– ما هذا الذى أراه .. كيف تحدثنى بهذا الأسـلوب ؟.. على كل حال أنا كنت مع هشام بك .. و..

التفت إليها منزعجا :

– وهذا ما كنت أخشاه .. تصرفك الطائش سيقحمك فـى مشاكل أنا لست على استعداد لمواجهتها .. تصرفك لا يتناسـب مع نشأتك الطيبة، وكأنك مازلت تلميذة صغيرة ولست ..

صرخت بانفعال حقيقى :

– كفى من فضلك .. لقـد تجـاوزت حقوقـك .. إنـك تتصرف معى وكأنك فى تحقيق من صميـم عملـك .. لا يـا شريف بك لا تحاول أن تنسى نفسك ولا تنسى أن لى شخصيتى وكيانى .. ولى رأيى الخاص أيضاً .

– رأيك لا يحق له أن يمس سمعتنا .. ثم .. ثم أين تركت المدعو هشام هذا ..

قالت متنمرة :

– شريف .. أنا أحذرك من طريقة أسلوبك معى .. ثم إن

المدعو هذا .. اسمه هشام بك محمود .. أم عندك اعتراض ؟

لاحقها بغضب أشد :

– نعم عندى اعتراض أيتها الطبيبة المحترمة .. أعترض على أن تكون شقيقتى على علاقة بأفاق مجرم .

صرخت للمرة الثانية :

– اصمت من فضلك .. هشام بك رجل أعمال نـــاجح .. ومحترم أيضا ..و..

قاطعها فى ثورة :

– وقاتل أيضا .. نعم قاتل .. وأراك تفخرين به .

رددت بحذر قائلة :

– قاتل .. ماذا تقصد بقاتل ؟

– نعم قاتل .. والشرطة تبحث عنه بأمر منى .

جلست وكأنها تسقط .. ثم تساءلت بهدوء مريب .

– قتل من .. ومتى ؟

استند على حافة الكرسى، وكأنه يتعلق بأى شئ يحميه من الانهيار والسقوط ..

وقال بجدية :

– قتل مدير أعماله السابق .. شخص يدعى عبدالغنى.

صرخت بلا إرادة :

– عبدالغنى .. من عبدالغنى .. لقد علمت يومـــا أنـــه مديـــر أعماله.

قال بهدوء :

– نعم .. إنه كان يعمل مديرا لأعماله .. و..

تركها ليرد على رنين التليفون .. كان هادئاً أو يحاول أن يكون كذلك وهو يتحدث بالتليفون هامساً :

– ماذا ؟.. هل سلم نفسه .. أم قبض عليه ؟..

.. سأحضر فوراً .

ووضع سماعة التليفون قاطعا حديثه، وانصرف خـــارج الشقة بسرعة دون أن يتحدث معها بكلمة واحدة .. حـــاولت أن تستفسر منه عما دفعه لهذا التصرف، واندفعت وراءه ولكنـــها كادت أن تصطدم بالباب كما اصطدمت بما يـــدور بداخلـــها .. تراجعت بخطوات قليلة إلى الوراء فى لحظة تشابكت فيها كـــل خلجاتها، ثم استدارت إلى النافذة، وما أن فعلت ذلك حتى توقفت مذعورة عندما فوجئت بأبيها عم سالم يستند بكلتا يديه فوق باب غرفته ثم همس بصعوبة قائلا :

–ماذا هناك .. يا ابنتى ؟

– لا شئ .. لا شئ يا أبى .

قال وكأنه يترنح :

– لا تحاولى المراوغة .. لقد سمعت كل شئ .. وعلمت أن هشام قتل مدير أعماله ..و..

كادت أن تسقط وهو يحاول الاقتراب منها مستطردا :

–ولكنى لا أصدق هذا .. ولا أصدق أن مثل هذا الشاب يمكنه أن يرتكب مثل تلك الجريمة .. إنه مظلوم .. مظلوم .. أخوك لا يعرف شيئاً .. بل .. بل أخوك ظالم .

طفرت الدموع من عينيها وهى تلحق به لتسنده . ثم قالت ببراءة:

–يا أبى .. أخى أمر باعتقاله .. أنا لا أعرف ولا ادرى هل أصدقه أم أصدق مشاعرى .

قال بهدوء غريب :

–صدقى الله يا ابنتى .. الله وحده هو الذى يرسم خطوط القدر .. ومشاعرك أيضاً .

ألقت برأسها فوق صدره وهى مستسلمة لبوادر البكاء قائلة :

– الله لن يعفينى من خطيئتى .

نجح فى الجلوس على المقعد القريب .. ثم قال :

-وهل أنت خاطئة يا نجوى ؟

- أقسم لك يا أبى لست مخطئة أو كافرة .. أنا ..

قال مسرعاً :

-أنت بريئة ونظيفة .. وأعتقد أن هشام أيضا كذلك ..

و..اضطر للصمت عندما دق جرس التليفون، وأسـرعت نجوى تتلقى المكالمة، حيث فاجأها أخوها شريف قائلا :

-يا نجوى .. هشام تم القبض عليه .. وهو فى طريقـه للتحقيق معه .. أرجوك إذا كان لديك معلومات فـأخبرينى الآن حتى أتمكن من تضييق الخناق عليه ..

أجابت وهى تغلق المحادثة سماعة التليفون فى وجهه :

-مبروك يا سيادة وكيل النيابة .. ولكنى لا أملك أيـة معلومات لكى أفيدك بها .

كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة مساء عندمـا دخـل المتهم هشام محمود إلى مكتب وكيل النيابة شـريف سـالم .. كانت لحظات صمت عصيبة جمعت بينهما، بدت واضحة تمامـا فى نظرة شريف إليه قبل أن يبادره قائلا :

- أود أن ألفت نظرك إلى أن كل الدلائـل تؤيـد اتـهامك،

وسوف تؤكدها بصماتك، ولهذا لن أسمح لـــك بالمراوغــة .. فــلا تحاول أن تضللنى وكذلك لا تضيع وقتى فى إخفاء أيـــة معلومـــات لديك .. و..

اســتدعى سكرتير النيابـــة ليأخذ مكانه ثم التفـــت إليـــه مستطرداً:

-الآن نبدأ من النهاية .. كيف قتلته ؟

قال هشام بهدوء لا يتناسب مع الموقف الذى فيه .

-أرجوك يا سيادة الوكيل لى بضع كلمات أود أن أقولها قبل بدء التحقيق .. أنا لم أقتل عبدالغنى .. وأرجو أن تصدقنـــى فيها لأنه يهمنى ذلك بالدرجة الأولى .. و..

قاطعه بعصبية مكبوتة :

-كل شئ من حقك أن تذكره فى التحقيـــق .. وعلـــى ضوء النتيجة سيتحدد موقفك، بالنسبة لى يـــهمنى أن أعــرف الحقيقة بالدرجة الأولى ولا شئ غير هذا .. وعلى أية حال اذكر لى علاقتك بعبدالغنى .

وبدأ هشام يستعيد الماضى منذ أوائل معرفتـــه بـــالقتيل . لـــم يحاول أن يخفى شيئاً، كيف التقى به أول مرة، وكيف اســـتطاع أن يكسب ثقته بسرعة كبيرة حتى أصبح ساعده الأيمن فى كل شـــئ .. كما ذكر كيف كان موقفه إزاء الأزمة الماليـــة التـــى حلـــت بـــه،

والعلاقات الجديدة التى قام بدور مهم فى نسج خيوطها ..و..

فاجأه شريف سالم قائلا :

–المقصود بهذا أنك أقمت معه شبكة للنصب عن طريق تسهيل الدعارة .

أجاب بصدق :

–لا .. أقسم لك أنه لم يكن هذا مفهوماً لدى .

قال ساخراً :

–إذن ما مفهومها بالنسبة لك ؟.. هل تسميها شبكة التوزيع الرشاوى بالتساوى أم التحايل على القوانين .

ردد باستسلام :

–على كل حال كانت أعمالا غير مشروعة .

– ثم ماذا بعد ذلك ؟

وعاد هشام محمود يذكر فى اعترافاته كل تفاصيل الأمور .. وكيف التقى برجاء مصطفى وقصتها العجيبة معه ومع الآخرين .. إلى أن وصل فى حديثه إلى ليلة القبض عليه وهو عائد إلى منزله .

وهنا استوقفه مرة أخرى متسائلا :

–متى رأيت عبدالغنى آخر مرة ؟

صمت برهة قبل أن يجيب :

-من ثلاثة أيام تقريباً :

لاحقه قائلا :

-وأين كنت ليلة مقتله ؟

أجاب بهدوء :

-أنا لا أعرف متى قتل .

- أين كنت مساء الأمس ؟

- كنت فى منزلى .

- هل رآك أحد .

أجاب بلا تردد :

-نعم حارس العمارة التى أسكن فيها، وكذلك حارس الجراج .. ولم أخرج حتى الصباح .

- وفى اليوم التالى .. أين كنت .

- كنت فى زيارة لأسرتى بالمنصورة .

سأله متحفزا :

- وهل اعتدت زيارتهم فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع ؟

أسقط نظره إلى الأرض .. ثم أجاب مضطربا .

-فى الحقيقة هذه أول زيارة لهم منذ سنوات طويلة .

ابتسم بارتياح شديد وهو يقول :

-ألا ترى أنه شئ غريب أن تتذكر أهلك فجأة فى نفس اليوم الذى يقتل فيه القتيل .

صرخ بلا إرادة :

-أقسم لك أنى برئ فأنا لم أقتله .. أنا ..

تدخل متسائلا بحذر :

-هل لديك شهود على صدق أقوالك .. هل رآك أحد وأنت فى زيارة أهلك .. سواء هنا أم هناك ؟

أجاب بصوت هادئ :

-أسرتى .. ممكن سؤالها .

نهض شريف منفعلا وهو يقول :

- وممكن أيضا أن تكون قد اتصلت بهم لتطلب منهم أن يؤكدوا أقوالك .

مضت لحظة صمت قبل أن يسترسل قائلا :

-هل كان معك أحد ؟

لم يجب ..

أعاد عليه السؤال بإلحاح :

-قلت لك هل كان معك أحد أثناء زيارتك لأسرتك ؟

فاجأه قائلا :

-لا .. لم يكن معى أحد .

عاد إلى مكتبه وهو يقول بإصرار :

-اسمع .. لا تحاول أن تبدو بريئـــا أو بطـــلا .. ولا تتصور أن إنكارك أية معلومة، مهما كانت قد تفيدك فى التحقيق .. فلا تدع الخيال يلعب برأسك .. هل كان معك أحد ؟

نظر إليه بحدة قبل أن يقول :

-لا ..

التفت شريف نحو سكرتير النيابة قائلا :

-قررنا حبس المتهم هشام محمود خمسة عشر يومـــا على ذمة التحقيق .. والتأكيد على اســـتدعاء المدعـــوة رجـــاء مصطفى .. و..

ونظر إلى ساعته مستطردا :

وقد أقفل التحقيق الساعة الرابعة والنصف صباحا ..

وما كاد ينصرف الجميع من أمامه حتى ألقى برأسه فـوق المكتب وهو يخفى وجهه بين يديه وكأنه يخفى نفسه من حقيقـة تصرخ فى أعماقه .

ودارت عقارب السعاة، لتدور معها الليالى وشريف سـالم يصر بتحد لكى يصل إلى الحقيقة .. راوده فكره أكثر من مـرة أن يتنحى عن التحقيق لزميل آخر، ولكن شيئا ما بداخله كـان يدفعه للاستمرار .. كأنه يريد حماية القـانون وكذلـك حمايـة أسرته الصغيرة دون أن يفصح عن ذلك .

وجاء دور رجاء مصطفى لتقف أمامه كاشفة عن أسوأ ما يمكن أن تخفيه صدور البشر .. تحدثت عن النفـاق المغـرض الذى يتستر وراء الابتسامات البريئة .. عن الحقد الأسود وهـو يلتحف الأحرف الطيبة .. عن الشر الكامن فى شريان الحياة .. عن لدغة الأفاعى البشـرية دون رحمة أو إشـفاق .. تحدثـت عن علاقتها المتعددة .. وسليمان بك .. والدور الذى كان يقـوم به القتيل .. وأخيرا ما كان من هشام محمود .

وما إن وصلت فى سردها إلى هذه النقطة حتى اسـتوقفها المحقق قائلا :

-من أجل هذا قتلتيه لتشترى بدمائه ثمنا لحبك الضائع.

أجابت باكية :

-أبدا .. أنا لم أقتله .. و..

صمتت برهة قبل أن تقول :

-ولو أننى تمنيت ذلك طويلا .. إلا أننى لم أقتله .. أنا ذهبت إليه حقا وطلبت منه أنيمنحنى حريتى مقابل الأوراق التى معى .. وكان قذرا كعادته، دنيئا فى مساوماته، رخيصا فى اقتراحاته، ومع هذا تحملته وتحاملت على نفسى لكى أصل معه لتحقيق هدفى ..

و.. قاطعها فجأة :

-وهل حققت هدفك ؟

قالت بكل أسى :

-لا .. لقد خدعنى كعادته وأخذ منى الأوراق ثم فوجئت به يكشف عن خصاله الوضيعة، ويطالبنى بأن ألعب نفس الدور مع رجل آخر غير سليمان بك .. حاولت أن أثنيه عن هذا بكل الطرق .. عرضت عليه أن أكون طوع أمره فى كل شئ إلا هذا .. ولكنه كان جامدا كالصخر غادرا كالثعبان قذرا كالخنزير . فخرجت من عنده ذليلة منكسرة لا أملك غير دموعى وأنا أرثى حالى .. بل فكرت فى الانتحار والخوف منعنى .. حتى تم استدعائى أمامك.

أطفأ سيجارته كأنه انتهى من كل شئ .. ثم قال بحدة :

-إذن أنت تتهمين هشام محمود .. و..

صرخت دون قصد :

-لا .. لا .. هشام محمود أطهر إنسان رأيته، إنه نقى ونظيف ولا يمكن أن يقدم على مثل هذا التصرف .. بل ..

مرة أخرى يسكتها قائلا :

-لم أطلب منك المرافعة عنه .. هل ..

ولكنه صمت فجأة وغاب قليلا مع فكره المنشغل . ثم بادرها قائلا :

-اسمعى جيدا .. محاولتك لأن تبدى وكأنك شهيدة للحب لن تنفعك .. فكلاكما عنده المبرر لقتله ..و..

-أنا لم أقتله .

-وهشام ؟

قالت متوسلة :

-وهو أيضا لا أعتقد أنه يفعلها .

- وما الذى يجعلك تعتقدين هذا ؟

أجابت بهدوء مثير :

-لأن قلبه عرف الحب .

وما كادت تنتهى من عبارتها حتى شعر بالدوار يطوف

برأسه، حيث تصور أنها تعنيه هو شخصيا، وأنها تلمح بشـقيقته الطبيبة .. اخترقت حروف كلماتها صدره قبل أن تصـــل إلـــى أذنيه .. رغب فيما لو استطاع ان يهجم عليها وأن يدق عنقــــها فى هذه اللحظة .. تمنى لو أنه كان قد اعتذر عن تحقيق تلــــك القضية .. لعبت بفكره الظنون بأن الجميع يعرفون قصة هــــذا القاتل مع شقيقته .

أطال النظر إليها وهو يفكر جيدا فى اتخاذ قرار التنحـــى، بينما جلست هى أمامه مذعورة لا تعرف ماذا حدث .. لا تتوقع ماذا سيقرر بشأنها .

وما كاد يلتفت إلى سكرتيره ليملى عليه قـــراره بشـــأنها، حتى توقف عند رنين التليفون وجاءته المكالمة من جهات البحث الجنائى بأنه قد تم القبض على القاتل الحقيقى وهو شخص آخــو بعيد جدا عن مسرح التحقيق .. فالقاتل أحد ضحايا القتيل وقـــد اعترف بتفاصيل الجريمة وأسبابها .

وبلهفة كبيرة أمر بالإفراج عن كـــل المتـــهمين، وكأنـــه يتخلص مسرعا من كابوس مخيف هاجمه وحاصره بلا هوادة .

نفس الإحساس اختلف تماما لدى هشام محمود وهو فـــى طريقه صباح اليوم التالى إلى حيث المستشفى التى تعمل بـــها الدكتورة نجوى سالم .. لم يكن سعيدا بقدر مـــا كـــان فخـــورا بنفسه، فخورا بالقرار الذى اعتنقه وتعايش مع وجدانه، فرحـــا

باكتشافه لخطواته .. شعر بلحظة الصدق تـــدب فـــى أعماقـــه وتنبض مع قلبه وهو يلتقى بها بعد أن انتظرها ساعات قليلـــة .. وما كاد يراها حتى بادرها قائلا :

-كنت أخشى ألا أراك عند أول لحظة لشمس حريتى .

أجابت بهدوء فاتر :

-أى لحظـــة تقصد .. براءتك من القتل .. أم من جرائـــم أخرى.

قال صادقا :

-أنا برئ .. وأنت أحق الناس بمعرفة هذا .

سكتت صامتة لبضع ثوان .. ثم قالت :

-القتل ليس هو مفهوم الجريمة الوحيدة، هناك جرائـــم عديدة قد تفوق إثم القتل .

سار بجانبها بجوار سور المستشفى صامتا قبل أن يقول :

- هذا .. لو اعتبر المجتمع أن الحب الحقيقى هو أعظـــم جريمة.

التفتت نحوه منفعلة :

-ماذا تقصد ؟

أجاب مسرعا :

–أنا أحبك .. فمرحبا بحبك، ولو كان أعظم جريمة فى نظر المجتمع ..

توقفت عن السير وكأنها اصطدمت بحجر صلد كـــاد أن يكفأها على وجهها .. ثم دققت إليه النظر قائلة :

–اسمع يا هشام بك .. أنصت إلى جيدا .. أنا أعجبـــت بك من خلال ما رويته أنت لى وما قاله أبى عنك .. أعجبت بك كإنسان ظلمته الأحداث فتصدى لها بقوة .. تكالبت عليه الليـــالى فصمد بكبرياء .. تخلى عنه الجميع فى محنته فتحلى بـــالصبر والإيمان .. إنسان داهمته المكائد وهو شريف فأعلنها حربا بكل قسوة على أعدائه .. إنسان حـــاول الشـــر تدميره، فدمره فـــى أعماقه أولا .. إنسانا نظيفا نقيا .. و..

قال فى شبه صراخ .. أو صرخ فعلا :

–أقسم لك انى أحبك .

– ولكنك غير أمين على هذا الحب .

أشاح بوجهه كأنه يحدث الكون كله .. وقال :

–يجب أن تصدقينى .. فأنا ..

قاطعته بحدة :

– كيف تكون أمينا على حبــك .. وأنت لست أمينا علــى نفسك.

قال حائرا :

-كيف ؟..

أجابت وهى تواصل السير :

- لأنك كنت مستسلما لا مسالما .. كنت مغرورا واثقا .. كنت حالما لا متيقظا .. أنت ظالما ليس مظلوما .. أنت..

استوقفها مستعطفا :

-ألا يغفر لى أن أكون إنسانا نظيفا ..و.. نادما .

قالت بإصرار :

وماضيك هل يغفر لك ؟ .. ثم ..

و .. أمسكت بيده فجأة .. وقالت :

-ثم أنا لا أستحق منك هذا المقابل .. أنت فى قلبك شرخ سيئن عليك أبد الدهر .. هذا الشرخ هو نبض العذاب وستظل دائما غائصا فى ذكرياتك، هائما مع أحلام اليقظة .. وأنا أعلم جيدا أنه إذا تلوث النهر فسيكون الموت للجميع لا محالة .. فهل ترى أو تريد أن يكون جزاء حبى لك هو الموت .. أو العدم .

قال بلا إرادة :

-لا .. ولكنى أعدك بأننى سوف أبدأ من جديد، سأعود

إلى نفسى .. إلى هشام محمود .. اعتبرينى بحق صديقا .

سبقتها دموعها قبل خطواتها وهى منصرفة قائلة :

-أتمنى هذا ..و.. دعنى أمنحك مشاعرى طواعيـــة .. ولكن لا تحاول أن تسرقها .

أســـرعت فى خطـــاها بعيدا عنه، بينما ظل هو ساكنا فى مكانه بلا حراك .. ثم ناداها بصوت لفت الأنظار إليه من حوله .. قائلا :

-صدقينى أنا لست مذنبا .. ولكن المجتمع هو الذى ..

ولكنه توقف مضطرا عن الحديث عندما شـــعر بأنـــه لا يحدث إلا نفسه .. وسط الجميع .

لم يكن حزينا بقدر ما كان نادما .. الإصرار الذى اســتقر فى أعماقه جعله فى مواجهة حقيقية مع ماضيه، إحساسه بالخجل من ذلك الماضى أنساه التفكير فى مستقبله . تمنى لو استطاع أن يولد من جــديد أو أن يبدأ من أول الطـــريق لعله يرضى نفسه قبل أن يرضى الآخرين .

ولكن، الواقع كان لديه كلمة .. فرضها عليه بلا توقعـات، وحاصره فى لحظة كل ما فى نسيجها .. عنيـــف ومضطـــرب وقاس، عندما فوجئ بزيارة رجاء مصطفى له فى الشقة .

جلس أمامها يتأملها فى صمت مشترك وكأنـــهما يســـتعيدان

أحداث الماضى، وكل منهما يرى صورته فى عين الآخر .. بـــدت وكأنها لحظة عتاب غير صريحة .. وكانت هى اكثر تحمسا كعادتها لكشف ما قد يبدو غامضا بالنسبة لنفسها .. فقالت هادئة :

– أعلم أنك شديد الحزن والألم .. ولكنى أعلم عنك أيضا أنك قوى بدرجة كبيرة وتســـتطيع أن تتجـــاوز هـــذه المحنـــة كعادتك..؟

كما أننى أحمل لك أول بشائر السعادة .

ردد بلا مبالاة :

– السعادة .

أجابت بفرحة :

–نعم السعادة .. لقد تحررت من سليمان وأصبحت الآن حرة أملك إرادتى فى اختيارى للإنسان الذى أحبه .

قال وهو ينهض :

–وأنا أيضا تحررت من أشياء كثيرة .. وأقربها أننـــى تخلصت من كابوس الماضى .

قاطعته وهى تتابعه بلهفة صادقة .

–وهذه بشرى أخرى أسمعها منك .. فأنا وأنت يجـــب أن نحاول نسيان الماضى حتى نبدأ حياتنا من جديد بداية نظيفـة

ليس فيها خوف ولا قلق .

التفت نحوها يقول مترددا، وكأنه يقاوم رغبة شديدة فـــى عدم الكلام :

-اسمعى يا رجاء .. كل منا قهرته الأحداث، وتكـــالبت عليه السحابات الشريرة . من أجل هذا أصبح من الصعب بـــل من المستحيل علينا أن نمد جسور العودة بيننا .

تسائلت منزعجة :

-ماذا تعنى بهذه الكلمات .. أنا ..

لاحقها قائلا :

-أعنى أن كلا منا لديه من الجراح ما يجلعه فى حاجـة إلى وقت طويل لكى تلتئم .

- حياتنا معا ستساعد على ذلك .. أنا وأنت فى حاجـــة لأن نكون معا، كلانا يمكنه أن يستمد قوته من الآخر.

عاد إلى مجلسه الأول .. ثم قال :

-بل كل منا سيتذكر ماضيه كلما شهد الآخر .

حاولت أن تخفف من حدة توتره، فاقتربت منه قائلة :

- هـــذا بالنسبة لى مكسب كبير لأنك كنت جـــزءا مــــن الماضى .. و..

جلست أمامه من جديد قبل أن تستطرد :

-وأنا على استعداد لأن أتمسك بالماضى مادمت أنــــت فيه .. لأنى أحبك .

وأنت تعلم أنك الحب الوحيد والحقيقى فى حياتى كلها .

قال بانفعال :

- أنت لم يكن لديك حقيقة واحدة فى حياتك . كما أنك

حاولت أن تقاطعه

ولكنه وقف بإصرار موليا لها ظهره وهو يسترسل:

- أنت استطعت أن تسرقى من عمرى سنوات قليلــــة .. وتسرقى أموالى .. ومستقبلى النـــــاجح .. وتســـرقى طموحــــى وكثيرا من مبادئى .. ولكن يجب أن تعلمى جيدا أنـــــك فشـــلت تماما فى أن تسرقى حبى .. ولن أسمح لك بذلك .

قالت وكأنها تصرخ :

- لا تساند الأيام فى تحطيمى .. فأنا ..

ولكنها صمتت فجأة عندما رأته يتجه نحو الباب ويفتحــــه .. ثم يقف بنظر إليها بعينين صارمتين وكأنهما بلا حياة .

سارت بخطوات متهالكة تجاه الباب .. ثم توقفت تطيــــل النظر إليه وقالت :

–أنا لا أملك الدفاع عن نفسى .. لقــد اعتــدت علــى الهزيمة دائما، واعتادت الليالى أن تقهرنى .. فسأرحل عنك كما تريد .. ولكن .. تذكر دائما أننى لم أحاول أن أســـرق حبــك، وليتك تكون لديك القدرة على سرقة حبى لك من قلبى .

ولكن أيضا لن أسمح لك بهذا .. و..

انصرفت مسرعة دون أن تنتظر منه تعليقا، بينمــا دفــع هشام محمود الباب برفق شديد، وما كاد يغلقه حتى أسند رأســه إليه، وصدى صوت نجوى سالم يدوى فى وجدانه مرددا .

–لن تسرق حبى .

"تمت"

أحمد فريد محمود